رفاعي سرور

حكمة الدعوة

طبعة ثالثة



هادف للنشر والتوزيع

٢٣ ش عبد العظيم البكرى - ترعة الهوارى - المطرية

ت : ٦٥٥٤٦٤٨ محمول : ٠١٠٥٣٨٥٥٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله .. وأشهد أن لا إله إلا الله . والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد .

عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتليء حكمة وايمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه »[1] .

هذا الحديث يؤكد قيمة الحكمة في تحديد منهج الدعوه وتكوين أصحابها وإنشاء واقعها وتحقيق غايتها .

حيث امتلأ بها صدر رسول الله ﷺ وهو صاحب الدعوة مع الايمان وهو قضية الدعوة في لحظة واحدة كما يؤكد النص قيمة الحكمة من خلال مجيئها يحملها جبريل وهو روح القدس ، في طست من الذهب وهو أغلى المعادن ، في مكة وهي البقعة المباركة ، ليلة الإسراء والمعراج وهي أعظم اللحظات ، ليمتليء بها صدر رسول الله وهو خير الخلق ، بعد غسله بماء زمزم وهو أطهر الماء . ورغم كل ذلك فالحكمة في واقع الدعوة القائم الآن قضية غائبة .. غيبها فهم خاطئ عنها وأبقى لنا منها في عقولنا فكرة (اللين) المحدودة فصرنا نفهم

(١) متفق عليه : البخاري فى الصلاة (٤٥٨ ــ ٤٥٩ / ١) ، ومسلم فى الإيمان رقم [١٦٣] من حديث أنس رضى الله عنه وهو قطعه من حديث طويل .

أن الحكمة هي كلمة لين أو موقف رقة . فضاعت الأبعاد الهائلة لقضية الحكمة وأمسينا في فتنة نارها فكر مشتت اشتعل ليحرق بقايا متفرقة من واقع يابس ومهيأ للأحتراق .

والفتنة تزداد بمزيد الفكر المشتت الذي يجعلها أشد احراقا .

ومن كل نقطة احتكاك بين هوج ذهني مشتعل وخمول عقلي يساعد على الأشتعال تندلع النار .

أو بتعبير مباشر .. من كل لقاء بين أدعياء ملكية المنهج الصحيح للدعوة وبين الراقدين في انتظار كل ادعاء تنشأ الاتجاهات النظرية المختلفة التي تضيف إلى نار الفتنة وقودا جديدا .

وقريب من واقع الفتنة المشتعلة نبع الماء الذي يطفئها .

نبع الحكمة . الذي يجب أن يتفجر وكل منا يترقب لنحاصر معا تلك النار ونخمدها لنبدأ مرحلة جديدة يقوم فيها كيان إسلامي واحد صحيح .

يحميه من كل جانب موقف حكيم ويمتد به في كل اتجاه كلمة حكيمة وقوة حكيمة .

وهذا الكتاب .

في الابتداء سعى عملي بخطوات منتظمة لانهاء تلك الفتنة .

وفي الانتهاء ارساء أساسي لابد منه أمام أي ممارسة منهجية للدعوة .

كما أنه فاتحة لمتواليات منهجية نتدارس من خلال كل متوالية منها — في كتاب جديد — أساسية من أساسيات الحركة . إن شاء الله .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

رفاعي سرور

معنى الحكمة

الحكمة من المفاهيم العميقة .. متعددة الجوانب .

والأسلوب الصحيح في تعريف مثل هذه المفاهيم هو جمع النصوص التي تضمنته من كل جوانبه والخروج بتعريف محدد له من مجموع تلك النصوص . لغة وشرعا .

الجانب الأول : وفيه جاء تعريف ابن عباس للحكمة أنها : « معرفة القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه ، وأمثاله — وفي رواية تفسيره — فان القرآن قد قرأه البر والفاجر »[٢] .

وعند الطبري : أن الحكمة هي : « العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ ، والمعرفة بها ، وما دل عليها » وأنها « اصابة الحق بالعلم والعمل »[٣] .

كما جاء في الحكمة — من هذا الجانب — قولهم : « الحكمة هي حجة العقل وفق أحكام الشريعة » .

والمعنى المأخوذ من هذه التعاريف أن الحكمة مفهوم منبثق عن أصل الشرع وأنها تعنى اصابة الحق والالتزام به .

---

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/٥٧١) وتفسير الطبرى (٥/٥٧٦) .
(٣) راجع التفسير للطبري (٥/٥٧٦) ففيه آثار بهذا المعنى .

وعلى هذا فليست الحكمة كلاما من عند الناس — أو فلسفة بشرية بعيدة عن أصل الكتاب والسنة .

ولذلك كان فهم ابن عباس للقرآن أثرا لدعاء النبي ﷺ له أن يعلمه الله الحكمة بدليل قول ابن عباس[*] الذي رواه (ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال : اللهم علمه الحكمة)[٤] .

ولذلك رفض أحد الصحابة تعريفا للحياء أدعى صاحبه أنه حكمة بعد تعريف رسول الله ﷺ « سمعت عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « الحياء لا يأتي إلا بخير ، فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة : أن من الحياء وقارا وأن من الحياء سكينة . فقال له عمران : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك »[٥] .

ومن أجل الأرتباط بين الحكمة وبين الحق والشرع صار التفكير فيما لا ينبغي وبما يخالف الشرائع إفراط في مفهوم الحكمة حيث جاء في كتاب الكليات للبغوي « أن الإفراط في الحكمة هو استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة الشرائع » .

وبذلك يكون الارتباط بين مفهوم الحكمة وأصل الشرع والحق هو الجانب الأول من جوانب المفهوم .

الجانب الثاني : وفيه جاء قول الله عز وجل : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن

(*) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة (٧/١٠٠) من حديث عكرمة عن ابن عباس .

(٤) ولذلك جاء فى تفسير ابن كثير .

(٥) متفق عليه : البخاري في الأدب (١٠/٥٢١) ، ومسلم رقم [٣٧] من حديث عمران بن حصين .

﴿ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .
[سورة البقرة الآية : ٢٦٩] ، وهو دليل على أن الحكمة ايتاء من الله عز وجل لمن يشاء من عباده .

ولذلك يقول ابن القيم : « والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه فالرجل الكامل من له ميراث كامل من أبيه ، ونصف الرجل — كالمرأة — له نصف ميراث ، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى وأكمل الخلق في هذه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأكملهم أولوا العزم وأكملهم محمد ﷺ » * .

وقول رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »(٦) ، وفيه دليل على أن الحكمة كذلك تكون بالتعلم .

كما جاء في هذا الجانب قول رسول الله ﷺ : « أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا ، الايمان يماني والحكمة يمانية »(٧) وفيه دليل على ارتباط صفة الحكمة بالتكوين الانساني من خلال صفات أخلاقية محددة .

والعلاقة بين الحكمة والانسان من خلال قدر الله بايتائها للأنسان واكتسابها بالتعلم والاستعداد بالطبع الأخلاقي هو الجانب الثاني من جوانب هذا المفهوم .

---

* والسفهاء جمع سفيه ، كما أن الحكماء جمع حكيم ، والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفه بمواضع المصالح والمضار ، ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ﴾ قال عامه علماء السلف . هم النساء والصبيان .

(٦) متفق عليه : البخاري في العلم (١/١٦٥) ، ومسلم رقم [٨١٦] عن ابن مسعود .

(٧) متفق عليه : البخارى فى المغازي (٨/٩٩) ، ومسلم رقم [٥٢] فى الإيمان عن أبي هريرة .

الجانب الثالث : وفيه جاء تعريف الحكمة : بأنها العدل في القضاء .

كما جاء أنها التجربة ، حيث جاء في تعريف الامام الزبيدي : « قولهم رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب » وقد اتفق التفسير الشرعي مع المعنى اللغوي في هذين الأمرين حيث ورد في معنى الحكمة أنها القضاء لقول رسول الله ﷺ « ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[٨] .

كما ورد أن الحكمة هي التجربة في قول رسول الله ﷺ « لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة[٩] » .

ثم يضاف إلى هذين الأمرين أمر ثالث وهو إجماع المفسرين على أن الحكمة هي السنة .

وبذلك تكون الحكمة قد جاءت بمعنى القضاء والتجربة والسنة .

وبالنظر في هذه الأمور الثلاثة نجد أنها تتفق في أصل واحد وهو (الواقع) .

حيث أن القضاء هو حكم في — (واقع) معلوم .

وأن التجربة هي حقيقة مستنبطة من (واقع) مشاهد .

وأن السنة هي (واقع) تطبيق القرآن .

وقد جاءت علاقة الحكمة بالواقع بصفة مباشرة في تعريف الحكمة مثل قولهم :

---

(٨) مرّ قريبا وأوله : لا حسد إلا فى اثنتين .

(٩) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٢/٢٦) وأحمد فى مسنده (٣/٦٩) ، والترمذى فى البر والصله رقم [٢٠٣٣] وقال « حسن غريب » .

والحاكم (٤/٢٩٣) وصححه ووافقه الذهبى ! وابن حبان (١/٢٠٨) .

« هي العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها »(*) وقولهم : أن الحكمة هي « علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية »(*) .

وارتباط الحكمة بالواقع هي الجانب الثالث من جوانب المفهوم .

الجانب الرابع : وفيه جاء قوله الله عز وجل : ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [سورةالقمر الآية : ٥]وبالغة تعني أنها تبلغ منتهاها وغايتها .

كما جاء في تعريف الحكمة عن الحسن بن على أنها : « الحق في المعنى .. والغاية في الاشارة » .

وقد عرف ابن القيم الحكمة بما يؤكد معنى الغاية وذلك في قول الله ﴿ **حكمة بالغة** ﴾ [سورة القمر الآية : ٥]وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [سورة النساء : الآية : ١١٣] وقوله : ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٦٩] حيث قال : « الحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح وسمى حكمة لأن العلم والعمل قد تعلقتا بمتعلقاتها وأوصلا إلى غايتها وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة فيكون مرشدا إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة » .

وواضح من التعريف علاقة مفهوم الحكمة بمعنى الغاية .

وارتباط مفهوم الحكمة بمعنى الغاية هو الجانب الأخير من جوانب المفهوم .

وبعد التحديد المجرد لجوانب مفهوم الحكمة من خلال علاقته بالشرع

(*) تعريف الإمام الزبيدي في كتاب تاج العروس .

(**) تعريف صاحب المنار .

والانسان والواقع والغاية .. يكون التعريف العام بها بعد ارتباطها بمفهوم الدعوة ، أنها : « حاسة الصواب .. الكامنة في كيان الداعية محددة له في واقع الدعوة .. سبيل الوصول إلى الغاية » .

* * *

● **حكمة الدعوة** : واضح من تعريف الحكمة أنها مفهوم واقعي منبثق عن أصل شرعي يستحيل تحقيقه في فراغ عملي أو إصداره عن عقل بشري .

ولذلك فإنه مما يتنافى مع مفهوم الحكمة أن يكون هناك أي إضافة فكرية إلى هذا الفراغ العملي الذي تعيشه الدعوة باعتبار أن هذه الاضافة الفكرية تضخيم لفتنة الفكر القائمة بالظهور النظري للإتجاهات والمناهج ، في غيبة الواقع الصحيح الذي يعتبر مقياسا أصليا في تحديد المنهج الصحيح للعمل .

ومن هنا كان انشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأولى في تحقيق معنى الحكمة .

ولذلك يحدثنا النبي ﷺ بأن الحكمة ابنة الواقع فيقول : « الايمان يماني والحكمة يمانية »(١٠) فوصف الحكمة بأهل اليمن ، فجعل الواقع بذلك هو الأصل ، والحكمة موصوفة به ، مما يؤكد أنه لا وجود للحكمة إلا بالواقع . ولذلك يضرب رسول الله ﷺ مثلا لواقع الحكمة بالاشعريين وهم أهل اليمن .

فقال ﷺ إني لأعرف أصوات رفقه الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ومنهم حكيم إذا لقى الخيل أو قال العدو . قال لهم : إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم)(*)

---

(١٠) سبق تخريجه رقم [٧] .

(*) متفق عليه : البخاري (٧/٤٨٥) ، ومسلم رقم [٢٤٩٩] عن أبي موسى .

وقد ورد في هذا الحديث عدة أقوال منها أن حكيم إسم رجل معين وهذا قول بعيد والأقرب أن قول رسول الله ﷺ (ومنهم حكيم إذا لقى الخيل أو العدو ..)

أن هذا مثل تطبيقي لمقتضى الحكمه وهو أن الوصول إلى مرحلة القتال[1] لا يكون إلا بعد إستنفاذ أقصى طاقات التأني وهو المقصود بكلمة (أن تنظروهم) وهذا يعني أن قول رسول الله مقصود به ظاهره سلوكيه ناشئة في الواقع عن طبيعة الحكمه في أهل اليمن .

فالواقع الصحيح مقياس للحق ودليل ذلك هو التعبير القرآني عن الخطأ الشرعي باستحالة الحدوث في الواقع كما في قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة الآية : ٢٢] .

فالأصل في الآية أنها نهى عن مودة الكافرين ، ولكن هذا النهي جاء في صيغة استحالة الحدوث (لا تجد) لان المنهى عنه شرعا مستحيل حدوثه في الواقع الصحيح .

والواقع الصحيح دليل للإثبات الشرعي ، ولذلك كان الامام مالك يعتبر عمل أهل المدينة باعتبارهم الواقع الصحيح أقوى إثباتا للأحكام من الأحاديث الصحيحة إذا كان هناك خلاف بين الاثنين — (الواقع والنص)[*] .

والواقع الصحيح أصل في حجة الله على الكافرين ولذلك يدحض القرآن حجة الكافرين بواقع الاستجابة .

(*) يراجع كتاب « صحة أصول مذهب أهل المدينه للإمام ابن تيمية » .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الشورى الآية : ١٦] .

وعلى أساس هذه القاعدة كان الحوار الذي بين هرقل ملك الروم وأبو سفيان حول رسول الله ﷺ والذي تساءل فيه هرقل عن شواهد واقعية محددة ثم شهد بعدها بنبوة النبي ﷺ ، وكانت هذه الشواهد كافية عنده دون أن يناقش نصا قرآنيا ، واحدا ، وهذا ما يثبت قيمة الواقع في إثبات صواب المنهج ، وكانت التساؤلات تدور حول ما يتعلق بصاحب الدعوة ونفى الشبهات عنه .

أيغدر .. ؟ أيكذب .. ؟ هل قال أحد مقالته .. ؟ هل من أبيه من ملك .. ؟ هل هو فيكم ذو نسب .. ؟ وما يتعلق بواقع الدعوة ويثبت صحته .

أفقراء الناس اتبعوه أم أغنياؤهم .. ؟ هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه .. ؟ كيف حال الحرب بينكم .. ؟ أيزيدون أم ينقصون .. ؟[١١] .

وما نعنيه بالواقع الصحيح للدعوة على وجه التحديد هو الجماعة المسلمة التي تبلغ كلمة الله ثم تقاتل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

إذ أن هذا الواقع بذلك التحديد هو الوضع المقابل للتفرق والاختلاف .

فمن ناحية التبليغ يكون الدليل هو قول الله عز وجل : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

---

(١١) البخاري في الإيمان (١/٣١) من حديث ابن عباس رضى الله عنه . وقد استدل البخاري لتعليقات هرقل على إجابات أبي سفيان في أبواب كثيره . مثال ذلك : باب قول الله تعالى : ﴿ **هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ والحرب سجال . وباب من إستعان بالضعفه الصالحين في الحرب وغيره . والحديث بنصه البخاري .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥] .

ومن ناحية القتال يكون الدليل هو قول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾

[سورة الصف الآيتان ٢ — ٤]

وإذا كان انشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأول في تحقيق معنى الحكمة .. وكانت الجماعة هي التحقيق العملي لمفهوم الواقع الصحيح ، فإن قيام هذه الجماعة يكون بداية البدايات في تحقيق هذا المعنى .

* * *

قيام الجماعة الواحدة

ومهمة قيام الجماعة الواحدة تقوم أساسا على الاتفاق الفكري ، ولكن هذا الاتفاق في وضع الفتنة أمر صعب ، ولذلك يجب أن تقوم الجماعة الواحدة في وضع الفتنة على أساس الائتلاف القلبي .

وتقديم أساس الائتلاف القلبي على أساس الاتفاق الفكري حكم من أحكام هذه الفتنة .

وقد حدد النبي ﷺ لكل صورة من صور الفتن موقفا يجب اتخاذه ، بحيث يمكن لنا تحديد قاعدة عامة يتم بها اتخاذ الموقف الصحيح لأي صورة من صور الفتنة وهو الموقف الذي إذا التزمه كل المسلمون توقفت الفتنة وإذا التزمه أي مسلم تحققت له النجاة منها . وهذه القاعدة يتضمنها هذا الحديث :

عن أبي ذر قال : ركب رسول الله ﷺ وأردفني خلفه فقال : « يا أبا ذر ، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع معه أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : تعفف . قال : يا أبا ذرأرأيت إن أصاب الناس موت شديد كيف تصنع ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبر . قال : يا أبا ذر ، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة البيت في الدماء كيف تصنع ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك . قلت : فان لم أترك ، آآخذ سلاحي ؟ قال : اذن تشاركهم فيما هم فيه ،

ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء باثمه واثمك »[١٢] .

وواضح من الحديث ثلاث صور للفتنة .. فتنة الجوع ، وفتنة الموت ، وفتنة الاقتتال .

ففي فتنة الجوع كان الموقف الصحيح هو التعفف .

وفي فتنة الموت كان الموقف هو الصبر .

وفي فتنة الاقتتال كان الموقف هو عدم المشاركة حتى لو بلغ الأمر أن يقتل المسلم دون أن يدافع عن نفسه وإن كان الأصل هو : « من قتل دون دمه فهو شهيد »[١٣] ولكن الفتنة تقتضي اختيار القتل دون الدفاع عن النفس ، وفي هذا دليل على أن للفتنة أحكاما خاصة .

فإذا كانت الفتنة فتنة فكرية فإن الموقف الصحيح يقتضي التوقف عن الجدل والظهور النظري للإتجاهات الحركية كما يقتضي استفاضة الحب وتحقيق الود والتجمع بالتآلف القلبي .

وهذه البداية شرط في حدوث هذا التجمع وصوابه .

بمعنى أن اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة ذات طبيعة فكرية يقضي بأن تكون الالفه بيننا قراراً فوقيا نتجاوز به مستوى الفتنة وفوقيه القرار تعني الا تكون الالفه بيننا مرهونة بمدى الاتفاق لاننا في فتنة فكرية وقرار الالفه حكم من أحكام مواجهة

(١٢) أخرجه أبو داود (١١/٣٤٠) وابن ماجه رقم [٣٩٥٨] وأحمد (٥/١٤٩) والحاكم (٢/١٥٧) وسنده حسن .

(١٣) البخارى فى المظالم (٥/١٢٣) من حديث ابن عمرو ولفظه : « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

الفتنة حسب قاعده التناسب بين طبيعة الفتنة وأحكام مواجهتها والمشار اليها في الحديث .

ويصبح اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة فكرية عذراً لنا فيما بيننا وبين أنفسنا فيمتنع بذلك العذر اتخاذ أي موقف صراع ومواجهة بين الأطراف المختلفة .

والذي يحقق العون الاكبر على الامتناع عن حدوث الصراع بين الاتجاهات المختلفة هو اثبات مسافات التقارب بينها . ابتداء من الهدف المتفق عليه بين الجميع وهو قيام المجتمع المسلم .

وتقديم أساس التآلف القلبي على الاتفاق الفكري في قيام الجماعة لا يعني تجاهل قيمة هذا الاتفاق الفكري بل يعني ضمان الوصول إلى هذا الاتفاق من خلال ذلك التآلف ، فهناك حقيقة اسلامية في النفس الانسانية تؤكد أثر القلب والاحساس على العقل والفكر اتفاقا واختلافا ، ومنطوق هذه الحقيقة هو قول رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف »(١٤) .

وكذلك فهناك حقيقة تؤكد أثر العقل والفكر على القلب والاحساس ومنطوقها قول رسول الله ﷺ : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »(١٥) .

ولكن التآلف الذي يتطلبه قيام الجماعة لا يقل عن الحد الذي حدده النبي ﷺ في قوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا

---

(١٤) علقه البخاري في الانبياء (٦/٣٦٩) من حديث عائشة ، وأخرجه مسلم في البر والصلة رقم [٢٦٣٨] من حديث أبي هريرة .

(١٥) أخرجه أبو داود (٣٦٤ — ٢/٣٦٥) والنسائي (٨٩ — ٢/٩٠) من حديث البراء بن عازب وسنده صحيح .

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد ـــ من قريب ومن بعيد ـــ بالسهر والحمى »[16] .

وكان هذا الحديث هو الواقع الذي عاشه المسلمون في عهد رسول الله ﷺ .

وهذا رسول الله ومعه أبو بكر في طريق الهجرة يشتد عليهما الحر ويصيبهما الجوع فيذهب أبو بكر ليبحث عن ظل لرسول الله فيجد ظلا لا يكفي غير واحد فيهيئه لرسول الله ويجلسه فيه ثم يذهب ليبحث عن طعام فيجد راعى غنم فيستأذنه في شيء من اللبن ويذهب به إلى رسول الله ثم يقول :

فشرب رسول الله حتى (ارتويت) وفي رواية حتى (رضيت)[17] .

وهذا أبو هريرة يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقول له : يا رسول الله ، أذكر لي آية الانفاق ، فيضحك رسول الله ويقول له : « انك جائع يا ابا هريرة ويعطيه لبنا »[18] .

رسول الله يشرب وأبو بكر يرتوي ويرضى .

ويجوع أبو هريرة ويشعر رسول الله ﷺ .

وبعد قيام الجماعة بالتآلف ، والمواجهة مع الجاهلية ، تنشأ عوامل أخرى تزيد من التآلف وتعمق الترابط .

وأبرز تلك العوامل هو الاحساس بالخطر الذي يحيط بالجماعة .

(١٦) متفق عليه : البخاري فى الأدب (١٠/٤٣٨) ، ومسلم فى البر والصلة رقم [٢٥٨٦] من حديث النعمان بن بشير .

(١٧) متفق عليه : البخارى فى المناقب (٦/٦٢٢) ، ومسلم فى الأشربه [٢٠٠٩] عن البراء وانظر صحيح مسلم (٤/٢٣٠٩) .

(١٨) البخاري فى الرقاق (١١/٢٨١) من حديث أبي هريرة .

وقد انصهرت بهذا الاحساس مشاعر المهاجرين والأنصار في بوتقة الشدة التي بلغت أقصاها في غزوة الأحزاب ، ولذلك يثبت القرآن الكريم أن قيام العلاقة الاسلامية الكاملة كان نتيجة طبيعية لمعايشة تلك المحنة .

فيصور لنا تلك العلاقة بخلفية الأحداث التي عاشها المهاجرون والأنصار في مواجهة خطر الأحزاب ثم يجعل هذه العلاقة التي عمقتها المحنة عمقا للعلاقة الاسلامية على امتدادها التاريخي وإلى قيام الساعة . فجاء في سورة الحشر :

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾ .

[سورة الحشر الآية : ٢]

ثم يقول : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

[سورة الحشر الآية : ٨ ، ٩]

ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

[سورة الحشر الآية : ١٠]

وفي سورة الأحزاب ..

يحدد القرآن الأسس الشرعية التي تنتظم بها العلاقة بين المؤمنين ولكنه يذكر بعد تلك الأسس عمق المحنة الذي قامت به تلك العلاقة أصلا فيقول :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ .

[سورة الأحزاب الآية : ٦]

وهذه هي الأسس ، ثم يقول بعدها :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ .

[سورة الأحزاب الآيتان : ٩ ، ١٠]

وفي واقع الايمان الصحيح لا تؤثر نتائج المواجهة مع الجاهلية ولا تغير مشقاتها في حقيقة الحب والتآلف الذي قامت عليه الجماعة .

فلا يشعر فرد أن الجماعة هي التي جرت عليه هذا الأذى . وقد أثبت لنا النبي ﷺ هذه الحقيقة عندما بعث رجلا من الصحابة ليبحث عن رجل بين القتلى في إحدى الغزوات فوجده في لحظات الموت . فقال له : إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام . فقال الرجل اقرىء منى رسول الله ﷺ ـــ السلام ، وقل له جزاك الله عنا خير ما جزى نبي عن أمته[١٩] .

وهذا شعور رجل مقتول نحو رسول الله الذي دعاه للقتال يقرئه السلام .. ويدعو الله أن يجزيه عنه خير ما جزى نبي عن أمته .

وبهذا التآلف تحقق الاتفاق التلقائي بين مواقف الصحابة في أدق المواقف

(١٩) الصحابى الذى كان فى لحظات الموت هو : سعد بن الربيع الأنصارى والذى جاءه هو : أبَيّ بن كعب انظر أسد الغابة (٢/٣٤٨) .

وأخطرها ، فبهذا التآلف علم عمر أن قتل مانعي الزكاة حق عندما وجد أن صدر أبى بكر قد شرح لقتالهم ، ولذلك يقول : « فما أن وجدت أن صدر أبي بكر قد شرح لقتالهم حتى علمت أنه الحق »[20] .

وبهذا التآلف اتفق عمر في كل ما أراد أن يقوله أبو بكر في سقيفة بني ساعدة تلقائيا ، وذلك عندما اجتمع المهاجرون والأنصار في السقيفة لاختيار الخليفة بعد وفاة رسول الله ﷺ أراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر وتكلم هو . فقال : عمر : « فوالله ما ترك كلمة كنت أريد أن أقولها إلا قالها »[21] .

وقد قدم النبي ﷺ حب الصحابة له دليلا على الولاء عندما قال المتحدث عن قريش في معاهدة الحديبية : « اجئتنا برعاع الناس ، ما أراهم إلا تاركيك ومنفضين عنك »[22] .

---

(٢٠) متفق عليه : البخارى فى الزكاة (٣/٢٦٢) ، ومسلم فى الإيمان رقم [٢٠] عن أبي هريرة .

(٢١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة (١٩ — ٧/٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنه ولكن ليس فيه جملة « ما ترك كلمة ... » إنما فيه : ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس . وعن ابن عباس رواه فى الحدود (١٤٤ — ١٢/١٤٥) مطولاً .

(٢٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٣ — ٤/٣٢٤) فى قصة طويلة من حديث المسور بن محزمة ومروان بن الحكم وفيه :

أنهم بعثوا إلى النبي ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فأتى رسول الله فجلس بين يديه فقال : يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها ..... الحديث .

وسنده صحيح .

وقصه ضوءه ﷺ وإبتدار أصحابه له ورجوع المتحدث — وهو عروة بن مسعود — وقوله ما رأيت ملكا قط مثل محمد فى أصحابه هو من تمام الحديث .

فما أن توضأ رسول الله ﷺ حتى أخذت الصحابة بقية وضوئه تتمسح به وما أمرهم أمرا إلا ابتدروا أمره .

فرجع المتحدث عن قريش يقول : « لقد رأيت الروم وقيصر .. ورأيت الفرس وكسرى ما وجدت قوما يعظمون ملكهم كما يعظم أصحاب محمد محمدا وأرى أن تصالحوه » .

* * *

● نهاية الفتنة الفكرية :

وبقيام الجماعة ينشأ الواقع الصحيح للفكر ، لأن الجماعة هي الواقع الشرعي للتلقي ، والمنظم الدقيق للفكر ، والحاكم الرشيد للعقل ، والحماية الحقيقية من الخطأ .

وبقيام الجماعة يصبح بقاؤها والحفاظ عليها أولى مبدئيا وعمليا من محاولة الاتفاق على أي أمر طالما تحقق الاتفاق على الأصل الذي قامت به الجماعة . حتى لا يترتب على تلك المحاولة انشقاق في كيان الجماعة التي قامت .

ودليل هذه الحقيقة هو ما بينه رسول الله ﷺ أنه إذا كان المسلمون على أمر رجل واحد وجاء من يشق عصاهم يكون الصواب هو قتل هذا الثاني [٢٣] حيث لن يكون لحقه قيمة في مقابل قيمة الجماعة الواحدة والمحافظة عليها .

ودليل آخر هو الأمر بترك المراء مع الإعتقاد بأن ما عند الفرد وما يريد اثباته

(٢٣) مسلم فى الإمارة رقم [١٨٥٢] والآخرة رقم [١٨٥٣] عن أبى سعيد ونصه « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه » والحديث الآخر « إذا بويع لخليفتين في الأرض فاقتلوا الأخير منهما » .

هو الحق . وذلك في قول رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق »[٢٤] .

حيث يتضح من الحديث أن ترك المراء وهو من أخطر أسباب التفرق هو الأمر الواجب .

ولو كانت محاولة الاتفاق على أي أمر أولى من المحافظة على العلاقة بين أفراد الجماعة لما كان هناك أمر بترك المراء رغم الاعتقاد بأن المراد اثباته هو الحق لأن الحديث يقول : « لمن ترك المراء وهو محق » ولذلك يجب أن تتحدد العلاقة بين الرأي الفردي ورأي الجماعة بما يضمن الاستفادة من فكر الفرد مع تفادي خطر الرأي الفردي على الاتفاق الجماعي .
وأساس هذه العلاقة هو حق الفرد في إبداء رأيه ، بدليل قول رسول الله ﷺ : الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. الدين النصيحة ... قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢٥] . بشرط أن تنتهي علاقة الفرد برأيه بمجرد الابداء فلا يعجب به بعد ابدائه حيث أن هناك نهيا عن الاعجاب بالرأي ، ونصه قول رسول الله ﷺ : « ثلاث من علامات الساعة .. شح مطاع .. وهوى متبع .. واعجاب كل ذي رأى برأيه »[٢٦] .

---

(٢٤) حسن : أخرجه أبو داود (١٣/١٥٦) عن أبي أمامة وفيه أبو كعب أيوب بن محمد السعدي لا يعرف وللحديث شواهد يرتقى بها إلى الحسن أو الصحة .

(٢٥) أخرجه مسلم من حديث تميم الداري رقم [٥٥] فى الإيمان .

(٢٦) أخرج الترمذي في التفسير [٣٠٥٨] وأبو داود (١١/٤٩٣) وابن ماجه رقم [٤٠١٤] والبغوي فى شرح السنة (١٤/٣٤٨) من حديث أبى ثعلبه الخشنى مرفوعاً : ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبع ودنيا مؤثره واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك . وسنده ضعيف أما ما ذكر هنا =

وبذلك تعتبر الجماعة هي المرحلة الأولى في إنهاء فتنة الفكر يتبعها في ذلك مرحلة ثانية وهي إحكام الفكر ذاته .

* * *

من علامات الساعة شح مطاع .... — فلا أراه حديثاً عن النبى ﷺ — . نعم ثبت حديث ابن عمر مرفوعاً عند الطبراني فى الأوسط ثلاث مهلكات ..... فشحّ مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه .

إحكام الفكر الإسلامي

والإحكام من أبرز معاني الحكمة ..

ولذلك يعرف ابن القيم الدرجة الأولى من الحكمة فيقول : « أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه » ثم يقول : وهذا الحكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا فاضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة اضاعة البذر وسقى الأرض وتعدى الحد كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل أوانه وكماله »[*] .

وإحكام الفكر يعني تنظيم العلاقات بين حقائق الفكر الإسلامي إذ أن لكل حقيقة في الإسلام حد لا ينبغي تجاوزه والمساواة بين الحقائق في كونها (فكرة اسلامية) من أهم أسباب الاضطراب في محاولة تحديد منهج الحركه ، ومن هنا جاءت تعبيرات النبي ﷺ بما يفيد العلاقات المنظمة بين الحقائق .

فمثلا نجد التعبير بأم الكتاب . الذي جاء في قوله ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب »[٢٧] .

والتعبير بسيد الاستغفار الذي جاء في قوله ﷺ « ألا أخبرك بسيد الاستغفار »[٢٨] .

(*) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٩ .

(٢٧) متفق عليه : البخارى فى الأذان (٢/٢٣٧) ومسلم فى الصلاة [٣٩٤] من حديث عبادة ابن الصامت .

(٢٨) البخارى فى الدعوات (١١/٩٧) من حديث شداد بن أوس .

والتعبير برأس الأمر الذي جاء في قوله ﷺ ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه : « الجهاد »[٢٩] .

فتعبيرات (أم) و (سيد) و (رأس) تفيد العلاقة .

وكذلك نجد في تعبير النبي ﷺ حرصا على ألا يطغى مفهوم على مفهوم تحقيقا للإحكام بين المفاهيم ، مثال قوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[٣٠] ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وذلك حتى لا تطغي مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس .

وكذلك عندما بين النبي ﷺ بأن الوضوء وصلاة ركعتين وراءه يغفر ما تقدم من الذنوب فإنه يحقق الإحكام بين الرجاء والغرور ، عن حمران قال : « كان عثمان رضي الله عنه قاعدا في المقاعد فدعا بوضوء فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ في مقعدي هذا ثم قال : « من توضأ مثل وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين غفر له ماتقدم من ذنبه »[٣١] وقال : رسول الله ﷺ .. « ولا تغتروا » .

وكذلك عندما يقول رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن يموت له ثلاثة أولاد

---

(٢٩) صحيح : الترمذي في الإيمان (٧/٣٦٢) وقال حسن صحيح ، والحاكم فى التفسير (٢/٤١٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى والمسند (٥/٥٣١) .

(٣٠) متفق عليه : البخاري فى الإيمان (١/٧٥) ، ومسلم فى الإيمان أيضا رقم [٢٢] عن ابن عمر .

(٣١) متفق عليه : البخاري فى الوضوء (١/٢٥٩) ، ومسلم فى الطهارة [٢٢٦] عن عثمان بن عفان .

إلا كانوا له حجابا من النار »[٣٢]، فإنه عليه الصلاة والسلام يستثنى استثناء هاما فيقول : « الا تحلة القسم » وهو قول الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة مريم الآية : ٧١] .

وبذلك تتقرر حقيقة الحجاب من النار بموت الثلاثة أولاد مع حقيقة الورود عليها تحلة للقسم دون تناقض .

وأساس الإحكام الفكرى في الاسلام هو أن تكون كل الحقائق متجهة نحو غاية نهائية واحدة .

ولتحقيق ذلك يجب قياس كل حقيقة إلى غايتها .. فمثلا :

حقيقة الايمان تقاس بقول « لا إله إلا الله » بدليل قول رسول الله ﷺ : « الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق .. والحياء شعبة من الايمان »[٣٣] .

وحقيقة العمل تقاس بالصلاة بدليل قول رسول الله ﷺ عندما سئل : أي العمل أفضل قال : الصلاة على وقتها ، قيل : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قيل : ثم أي ، قال : الجهاد في سبيل الله[٣٤] وقوله ﷺ : « أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله »[٣٥] . وحقيقة المقام والمكانة تقاس إلى مقام النبوة بدليل قول الله عز وجل :

---

(٣٢) متفق عليه : البخاري فى الجنائز (٣/١١٨) ، ومسلم فى البر رقم [٣٦٣٢] عن أبي هريرة ، وتفسير تحلة القسم من كلام البخاري وليس بمرفوع .

(٣٣) مسلم رقم [٣٥] في الإيمان من حديث أبي هريرة وعند البخاري نحوه في الإيمان أيضاً (١/٥١) .

(٣٤) البخاري (٢/٩) من حديث ابن مسعود .

(٣٥) أخرجه الترمذي رقم [٤١٣] من حديث أبي هريرة وحسنه ، والنسائى=

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة النساء الآية : ٦٩] وقول النبي ﷺ « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا »[٣٦] ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ، وقوله : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين »[٣٧] .. وهكذا .

وقيمة الإحكام الفكرى في الإسلام ترجع أساسا إلى أن هذا الإحكام الفكري هو المقدمة الطبيعية للإحكام التطبيقي الذي يضمن قيام الواقع الإسلامي بصبغته الخالصة كما أرادها الله سبحانه .

والحكمة هي أساس تحقيق هذه الصبغة ، لأن الحكمة هي الحَكَم التطبيقي بين الحقائق .

فلا يجوز أن تأخذ الدعوة صورة كلامية بحتة أو صورة قتالية بحتة .. أو صورة اعتزالية بحتة .. رغم أن التبليغ بالكلمة حق شرعي في ذاته .. والقتال حق شرعي في ذاته .. والاعتزال أو الهجرة حق شرعي في ذاته ..

ولكن الحكمة هي التي تعطى لكل حق شرعي في ذاته . حق التطبيق في الواقع ..

ومن هنا يجب أن تكون هناك حساسية شديدة في قبول أي صورة تطبيقية للفكر في الواقع .

= (١/٢٣٢) ، وأحمد (٥/٣٧٧) ونحوه (٢/٢٩٠) ، والحاكم (١/٢٦٣) وصححه ووافقه الذهبي — وهو كما قالا .

(٣٦) البخاري (١٠/٢٣٦) عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

(٣٧) الترمذي رقم [١٢٠٩] ، والحاكم (٢/٦) من طريق الحسن عن أبي سعيد .

وهؤلاء هم صحابة رسول الله ﷺ يشتكون رجلا إلى رسول الله لأنه يقرأ في كل صلاة بسورة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾[38] رغم أن الفعل جائز شرعا إلا أنهم رأوا في هذا العمل مظهرا جديدا في التطبيق .

وعلى أساس الإرتباط بين الحكمة والإحكام كان التقابل بين الحكمة والبدعة ذلك أن البدعة هي في تطبيقها فكرة دخيلة على إطار الفكر الإسلامى المُحكم وقد أورد الامام ابن تيمية في التقابل بين الحكمة والبدعة قول الإمام أبو عثمان النيسابوري « من جلس إلى صاحب بدعة حرم الحكمة » كما قال : « من أمّر السنة على نفسه قولا وعملا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وعملا نطق بالبدعة »[*] .

وأقرب تشبيه للعلاقة بين الحقائق في واقع الفكر الإسلامي هي العلاقة بين العناصر الكونية التي تشكل بصفة دقيقه الواقع الكوني .

وتماما مثلما يتجاوز العنصر الكوني حدوده فتنشأ الظواهر الكونية المدمرة ، كذلك تكون الحقيقة عندما نتجاوز بها حدودها في واقع الدعوة .

ولنعمق هذا التصوير بمثال لحقيقة من الحقائق التي تجاوزنا بها حدودها لنرى آثار هذا التجاوز .. حقيقة الحذر .. وحدودها الصحيحة في واقع الفكر هو حد التوكل على الله الذي نخوض به الأحداث ، وحد الايمان بالقدر الذي نتقبل به نتائج الأحداث .

ولكن بتجاوز الحذر لهذين الحدين صار الحذر جبنا يقعد عن العمل .. وريبة تفسد العلاقة وتبدد الاطمئنان . وأغرق تجاوزنا بحقيقة الحذر لحدودها واقع الدعوة بظاهرة مدمرة أشد تدميرا .. وهي ظاهرة الاتهام بالعمالة التي هبطت

(٣٨) علقه البخاري فى « الأذان » (٢/٢٥٥) عن أنس ووصله الترمذي والبزار وغيرهم .
(*) كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للإمام ابن تيميه ص ٣٥ .

بمستوى الثقة في مجال الدعوة بصفة عامة ولم تضر فقط بالعناصر التي أصابها هذا الاتهام ، لأن افتراض وجود عميل بين المسلمين معناه افتراض العمالة في كل مسلم ، والقاعدة أنه لا يوجد من هو فوق الشبهة . وهذا لا يرجع إلى واقع الشخصية الإسلامية . ولكن يرجع إلى أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

وبإفتراض العمالة يضيع الاطمئنان فلا تقوم علاقة ولا تكون جماعة ولا تصير دعوة وهذا هو البعد النهائي للإفتراض .

وقد كانت ظاهرة الاتهام بالعمالة نتيجة مباشرة لفتنة الفكر .

وذلك عندما تجاوز التفكير العقلي حد التوكل على الله والايمان بالقدر مع فقدان التآلف في مجال الدعوة فصارت العلاقة الانسانية في هذا المجال علاقة عقلية جافة مهيأة لتقبل أي محاولة خبيثة لتفتيتها ، ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كان التآلف القلبي أساسا للإتفاق المنهجي من حيث الفكر فإنه في نفس الوقت أساس للإطمئنان الوجداني الذي يعتبر شرطا جوهريا للممارسة الحركية بعد الاتفاق المنهجي .

والعلاقة الانسانية في مجال الدعوة لا تقوم إلا بالإطمئنان المطلق والثقة الكاملة .

وهذا حديث يؤكد هذه الحقيقة :

« عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا حجاجا — أو عمارا — ومعنا ابن صياد ، قال : فنزلنا منزلا فتفرق الناس وبقيت أنا وهو فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه (*) قال : وجاء بمتاعه فوضعه على متاعي ، فقلت : أن الحر

(*) كان ما يقال عليه أنه هو المسيح الدجال .

شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة ، قال ففعل ، قال فرُفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعس فقال : اشرب أبا سعيد ، فقلت : إن الحر شديد واللبن حار — ما بي إلا أنى أكره أن أشرب عن يده ، أو قال آخذه عن يده — فقال يا أبا سعيد : لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول في الناس ، يا أبا سعيد : من خفى عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفى عليكم معشر الأنصار ، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ : هو كافر[*] وأنا مسلم ؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : هو عقيم لا يولد له وقد تركت ولدى بالمدينة ؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : لا يدخل المدينة ولا مكة وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة ؟ قال أبو سعيد الخدري : حتى كدت أن أعذره ، ثم قال : « أما والله إنى لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن ، قال قلت له : تبا لك سائر يومك »[٣٩] .

فمن خلال هذا النص ندرك أنه كان هناك اقتناع عقلي ببراءة ابن صياد من الاتهام ولكن هذا الاقتناع لم يكن كافيا لقيام علاقة حقيقية ، بدليل رفض أبى سعيد الخدري أن يكون متاعهما فوق بعضه ، ورفضه أن يشرب اللبن من يده ، ورغم كل ما ذكره له ابن صياد من أدلة ، فإنه يقول : لقد كدت أعذره . أي أنه لم يعذره العذر الكامل .

كما ندرك احساس المتهم بمن حوله من الناس . وكيف دفعه هذا الاحساس إلى قول : « لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول الناس » . وهذا أقرب تعبير يكشف لنا الواقع النفسي لمن يعيش في موضع الاتهام بين الناس وهو برىء ، وكما كانت عقلانية العلاقة الانسانية فى مجال الدعوة وجفافها جوا

(*) يقصد الدجال .

(٣٩) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد رقم [٢٩٢٧] .

مهيئا لظهور الاتهام بالعمالة فإنها كانت عاملا مساعدا على تضخم تلك الظاهرة وذلك من خلال مواجهتها بصورة عقلية بوليسية بحتة .

وانهاء ظاهرة الاتهام بالعمالة لا يتحقق بالأساليب البوليسية التي قد يتصور البعض أنها وسيلة الاطمئنان ، وذلك لسبب بسيط وهو أن الاتهام بالعمالة من الاتهامات التي تفقد المتهم قدرته في الدفاع عن نفسه .

وأقرب تشبيه للإتهام بالعمالة في هذه الناحية هو الاتهام بالجنون . فمثلما تتحول محاولة المتهم بالجنون في الدفاع عن نفسه إلى ظاهرة من ظواهر الجنون في تصور الناس .. فإن أي محاولة يحاولها المتهم بالعمالة للدفاع عن نفسه ستقابل في ذهن الناس على أنها سلوكا يحتمه دور العمالة الذي يؤديه . فتضيع المحاولة هباء منثورا .

وبذلك نرى كيف وضع الاتهام بالعماله الدعوة في طريق مسدود من حيث الاتهام ذاته ومن حيث فقدان القدرة على مواجهة ذلك الاتهام .

وإذا كان العلاج قد بدا صعبا أو مستحيلا فإنه يبدو سهلا ممكنا في ضرورة إحكام العلاقة بين الحقائق الإسلامية من حيث التطبيق .

فإذا كان بجانب حقيقة الحذر .. حقيقة التوكل على الله وحقيقة حسن الظن . وحقيقة الايمان بالقدر خيره وشره لتحقق الاتفاق بين الحقائق .. وهذا هو الإحكام .. وتلك هي الحكمة .

* * *

● الفكر والقدر :

وبعد أن اتفقنا على ضرورة الإحكام الفكرى بتحديد العلاقة بين الحقائق . نريد أن نتفق على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته بعد إحكامه وبين القدر الالهي باعتبار

أن قيام الواقع الاسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ولا يرجع إلى التفكير البشري المحدد لقيام هذا الواقع .

ولذلك يقول ابن القيم في تعريف الحكمة « الحكمة حكمتان عملية وعلمية ، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا ، قدرا أو شرعا »(*) .

وحقيقة أن قيام الواقع الاسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ، بديهية يدركها كل داعية ، ولكن هذا الادراك غالبا ما يكون مجرد مبدأ نظري لا يؤثر في واقع الحركة من حيث تحديد المنهج أو أسلوب العمل .

والعلاقة بين الفكر والقدر يحددها من حيث الواقع عدة حقائق :

أن التفكير البشري مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه وقد يحدث بما يخالفه .

وهذا لوط عليه السلام يبحث بتفكيره عن ركن شديد فيقول : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [سورة هود الآية : ٨٠] ، وهو بواقعة يأوى إلى ركن شديد . فيقول الرسول ﷺ : « يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد »(٤٠) .

وهذا معناه أن قدر الايواء من الله له تحقق فيه دون تفكير مباشر منه .

وقد يحدث بما يخالف هذا التفكير ، بدليل قدر حدوث غزوة بدر بما يخالف التفكير في الاستيلاء على القافلة ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [سورة الأنفال الآية ٧] بل قد يحدث القدر بما يضاد التفكير مباشرة .

(*) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٩٨ .

(٤٠) البخاري في « الإنبياء » (٦/٤١١) ، ومسلم رقم [١٥١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذا يونس عليه السلام .. يفكر في الخلاص من القوم بالسفينة ، فتكون هذه السفينة بقدر الله سبب هلاك ، إذ يلقي منها في البحر فيلتقمه الحوت ، وهو بتفكير البشر هلاك ليكون بقدر الله سبب نجاة .

من أجل ذلك فإن القرآن يعلمنا الايمان باطلاق القدر الالهى ومحدودية التفكير البشري فيقول عز وجل : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة المائدة الآية : ٥٢] . ردا على المنافقين الذين لا يؤمنون بقدرة الله على تخليص المؤمنين من الاستضعاف أصلا . وتوجيها للمؤمنين الذين يؤمنون بقدرة الله على ذلك ، ولكنهم قد يحددون هذه القدرة بصورة واحدة وهي الفتح .. فيقول الله : ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج الآية : ٤١] . وقيام الواقع الإسلامي بصورته الماديه هو في النهاية أمر غيبي لا يمكن للذهن البشري أن يحتويه ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة هود الآية : ١٢٣ ؛ سورة النحل الآية ٧٧] وقد يفتن الفكر البشري بإرتكازه على الأسس الشرعية أو النواميس الكونية .. فيجزم بضرورة تحقيق النتيجة المحددة بهذه الأسس وتلك النواميس .. ولكن القدر فوق الشرع وفوق الناموس .

وهذه حقيقة الحقائق وقمة اليقين التي تملأ قلب كل مسلم حقيقة أن رسول الله سيدخل الجنة ، يرد رسول الله ﷺ حدوثها إلى الله فيقول — كما في الصحيح — والله أنى لرسول الله لا أدرى ما يفعل بي ولا بكم »[٤١] ..

وأي محاولة احتواء ذهني لأمر غيبى هي تأله على الله وتجاوز للحد البشري كما قدره الله .

وما سبق في تحديد العلاقة بين القدر الالهي والفكر البشري كان باعتبار تحقيق الواقع ، ولكن من حيث تحديد المنهج أصلا فإن العلاقة تتحدد من خلال عدة أمور .

---

(٤١) البخاري فى (الجنائز) من حديث أم العلاء (٣/١١٤) .

الأول : أن التكاليف الشرعية هي التي تتضمن الأسباب القدرية لتحقيق الواقع .. فإن الخطأ الشرعي في مجال الدعوة يعني استحالة أو تأخير تحقيق هذا الواقع .

وليس لهذه القاعدة أي استثناء .

وهذا رسول الله ﷺ تسأله اليهود عن الروح فيقول سأخبركم غدا ، ولا يقول إن شاء الله . فلا ينزل الوحى . إلا بعد فترة . الرسول يحزن فيها ﷺ حزنا شديدا ، ويقول فيها اليهود : ذهب عنه شيطانه .

ولما نزل الوحى بالإجابة ، نزل ومعه تصحيح وتحديد السبب الذي من أجله تأخر النزول [٤٢] .

الثاني : تحديد السنن القدرية الثابتة وذلك بنصوص الكتاب والسنة لتحقيق التوافق معها في مجال الحركة الاسلامية وقد وضح هذا التوافق وضوحا كاملا في التحرك الاسلامي الأول وبالتحديد في مجال القتال .

حيث كان الأسلوب القتالي مرتبطا بسنن إهلاك الكفار لتحقيق المعنى القدري للقتال وهو أنه عذاب الله للكفار بأيدي المسلمين ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

[سورة التوبة الآية : ١٤]

وهذه مقارنة سريعة بين سنن الاهلاك وأساليب القتال .

في فتح الطائف .. حاصر الرسول الطائف ثلاثة أيام ولم تفتح له . فقال : سنرحل غدا ، فأرادت الصحابة القتال . فتركهم يقاتلون فجرحوا جراحات

(٤٢) انظر البخارى (٤٠١/٨) ومسلم رقم [٢٧٩٤] . تفسير قول الله عز وجل ﴿ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾.

شديدة . ولم تفتح لهم ، فقال : سنرحل غدا ان شاء الله . وتم الرحيل . ثم بعث رسول الله ﷺ إلى عروة بن مسعود وهو مشرك من الطائف ودعاه إلى الإسلام فأسلم . فذهب إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقتلوه . فقال عليه الصلاة والسلام « مثل عروة بن مسعود في قومه كمثل صاحب سورة ياسين وهو الذي قال الله فيه : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ ﴾ [سورة يس الآيتان : ٢٨ ، ٢٩] . وفتحت الطائف بعد قتل عروة بن مسعود »(٤٣) .

وفي فتح خيبر .. قال الرسول ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر . انا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » . توافقا مع قول الله : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [سورةالصفات الآيتان : ١٧٦ ، ١٧٧] .

وفي فتح مكة يطلب الرسول ﷺ من الصحابة أن يقولوا « حطة »(٤٤) كما أمر الله بني اسرائيل أن يقولوها في دخول الأرض المقدسة كما جاء في قول الله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [سورة البقرة الآية : ٥٨] .

ولهذا قال الرسول بعد أن قالها الصحابة : « والله إنها الكلمة التي أمر بني اسرائيل أن يقولوها فلم يقولوها » .

وفي غزوة الأحزاب .. علم رسول الله ﷺ أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال : « ابشروا معشر المسلمين » لأنهم بهذا التحزب حققوا سنة اهلاكهم ، لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب . ولهذا قال الرسول

---

(٤٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٣) من حديث المسور بن مخرمه ومروان بن الحكم انظر أسد الغابة (٤/٣٣) والإصابة (٢/٤٧٦) وسيرة ابن هشام (٢/٥٣٧) .
(٤٤) البخاري « المغازى » (٨/١٦٤) من حديث أبى هريرة .

ﷺ : « اللهم منزل الكتاب ومجرى الحساب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم »[٤٥] ولهذا عبر القرآن عن الكافرين بعد اهلاكهم بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾[سورة ص الآية : ٧] . وكان الغزو صباحا من أهم الأساليب القتالية التي حققت التوافق بين القتال وسنن اهلاك الكافرين .. حتى أصبحت الخيل هي المغيرات صبحا كما جاء في قول الله تعالى : ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾[سورة العاديات الآيتان : ١ — ٣] .

والاصباح سنة اهلاك . بدليل قول الله في قوم لوط : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾[سورة هود الاية : ٨١] .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾[سورة القمر الآية : ٣٨] .

وقول الله : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[سورة الصافات الآية : ٧٧] .

أما الأمر الثالث : في العلاقة بين الفكر البشري وقدر الله في تحديد منهج الدعوة فهو أن الاستدلال بالنصوص الاخبارية عما سيكون في آخر الزمان وأشراط الساعة ، يكون باعتبار أنها ليست نصوص تكليفية وباعتبار أنها ليست سنن قدرية يلزم التوافق فيها والحركة . بل إنها أقدار غيبية لا يلزمنا الاحتجاج بها . أما النصوص التكليفية فهي مدار هذا التأصيل .

والأمر الرابع : في العلاقة بين الفكر البشري والقدر الالهي في تحديد منهج الدعوة هو رفض التفكير البشري البحت الذي لا يقوم على أصل شرعي أو سنة قدرية ثابتة ، فهذا التفكير هو الذي سيتحول بالدعوة إلى حركة مادية ، ويفقدها صفة الربانية ، ولهذا نجد في واقع الدعوة الصحيح المواقف التي تؤكد صفة الربانية بصورة واضحة .

(٤٥) البخاري (٧/٤٠٦) ، ومسلم رقم [١٧٤٢] عن عبد الله بن أبي أوفى .

ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه في أشد الحاجة إلى من يشاركهم قتال المشركين يرفض رسول الله ﷺ رجلا مشركا يريد القتال معه ويقول له : « ارجع فإني لا أستعين بمشرك »[٤٦] وبالتفكير المادي في الموقف كان يمكن مشاركة هذا الرجل .

ويأتي رجل آخر إلى الرسول ويقول أقاتل أو أسلم فيمنعه الرسول من القتال معه ويقول له : « بل أسلم ثم قاتل »[٤٧] فبايع وقاتل فقتل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عمل قليلا وأجر كثيرا » .

وبالتفكير المادي في المواقف كان يمكن تأجيل البيعة لأن القتال دائر .

وفي وقت القتال تقام صلاة الحرب لتصلي جماعة من المسلمين وتحميها الأخرى .

وبالتفكير المادي كان يمكن تأجيل الصلاة حتى لا يضيع الوقت وإمكانيات القتال . وفي القتال يرفع السيف عن كل من قال لا إله إلا الله ، وهذا سؤال يسأله صحابي لرسول الله ﷺ : عن المقداد بن الأسود أنه أخبر أنه قال : يا رسول الله ، أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ثم لاذمني بشجرة فقال أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : لا تقتله . قال فقلت : يا رسول الله ، إنه قد قطع يدي ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله : « لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال »[٤٨] .

---

(٤٦) أخرجه مسلم رقم [١٨١٧] من حديث عائشة رضى الله عنها .
(٤٧) البخاري فى الجهاد (٦/٢٤) من حديث البراء بن عازب .
(٤٨) أخرجه مسلم في الإيمان رقم [٩٥] عن المقداد بن الأسود .

ويدخل الدعاء كأقوى أسلحة القتال ، ففي غزوة الأحزاب . ينظم الرسول كل أموره ويعد كل عدته ثم يقول : « ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره أدع الله يا براء أن يهزمهم وينصرنا عليهم »[٤٩] .

ثم يعلمنا النبي ﷺ أنه إذا كان البشر يحققون أهدافهم بقوتهم وإمكانياتهم المادية فلسنا مثلهم ، فيقول : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم »[٥٠] .

لأنها دعوة ربانية .. تقوم بالقدر ولها أسباب وسنن[*] .

* * *

(٤٩) البخاري في المناقب (٢٧٤ / ٨) ومسلم رقم [١٦٧٥] عن أنس .
(٥٠) البخاري في الجهاد (٨٨ / ٦) عن سعد بن أبي وقاص .
(*) يراجع كتاب قدرة الدعوة للكاتب .

تكوين الفرد المفكر

وبعد انشاء الواقع الصحيح للتفكير وإحكام الفكر ذاته في تحديد المنهج وتحديد العلاقة بين الفكر والقدر في قيام الواقع ..

تأتي مرحلة ثالثة تنتهي بها فتنة الفكر القائمة وهي تكوين الانسان المفكر ، ووجود الانسان المسلم المفكر تفكيرا صحيحا هو الحل الأساسي لمشكلة الدعوة ، حيث أن الفهم هو الموضع الحقيقي لتلك المشكلة . والانسان هو صاحب الفهم ، وقد صور لنا رسول الله ﷺ العلاقة بين المسلم ونصوص القرآن كنحلة تمتص الرحيق وذلك عندما سمع بلالا يتنقل في قراءته بين سور القرآن فقال : « أن مثل بلال كالنحلة تأكل طيبا وتضع طيبا ثم هو حلو كله »(٥١) .

وهذا التصوير يحدد لنا مهمة المسلم في فهم النص على أنها استخراج من رحيق القرآن حق فيه شفاء للناس .

وأي محاولة لفهم القرآن دون أن يتجاوز النص القرآني الحناجر ودون أن يكون هناك القدرة الايمانية على امتصاص رحيق الحق من النص فإنها سترجع فهما خاطئا وفكرا هزيلا .

وضرب رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم مثلا لذلك بحديثه المستفيض بشأن صفة الخوارج وضلالهم مع عبادتهم فقال : « يقرأون القرآن لا

(٥١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادره والطبراني في الأوسط رقم [١٨١] عن أبي هريرة وراجع مجمع الزوائد (٣٠٠ / ٩) فقد حسنه الهيثمي .

يجاوز تراقيهم »[٥٢] وفي رواية في غير الصحيح « لا يجاوز حناجرهم » .

ومن أجل قيمة الفهم جاء تعريف الحكمة عن ابن عباس وفيه تحديد للإصول العلمية التي يتحقق بها الفهم الصحيح للإسلام . وفيه تعليل لذلك التحديد بأن القرآن قد قرأه البر والفاجر وذلك قوله : « الحكمة هي المعرفة بالقرآن ناسخة ومنسوخة ومحكمة ومتشابهة ومقدمه ومؤخرة وحلاله وحرامه وأمثاله »[٥٣] ، وفي رواية تفسيره : « فإن القرآن قد قرأه البر والفاجر » ، وهذا معناه أن تحديد هذه الأصول أصبح أمرا ضروريا بسبب اختلاط الأفهام ، ومعناه كذلك أن اختلاط الأفهام يرجع مباشرة إلى تعرض من لم يصلوا إلى مرحلة البر لتفسير النصوص . حيث أن صفة البر في الانسان أصل في فهم القرآن .

وقيمة الانسان في فهم الاسلام ترجع إلى الإتفاق بين الحق في الاسلام والفطرة في الانسان ودليل ذلك معروف وهو قول الله : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم الآية : ٣٠] .

هذا من حيث التكوين الخلقي ..

أما المقياس المتمم لمقياس الفطرة في الانسان لتحقيق الفهم الصحيح للإسلام فهو مقياس الربانية وهذا من حيث التكوين الشخصي .

ومعناه أن يكون الانسان بعقيدته وتفكيره وسلوكه مقياسا للحق مثلما كان بفطرته من البداية ..

---

(٥٢) روى عن أبي سعيد عند البخاري (٣٧٦ / ٦) ، ومن حديث جابر عند مسلم [١٠٦٣] وهي قطعة من حديث طويل .

(٥٣) سبق تخريجه في أول الكتاب .

والربانية هي استفاضة صفة العبودية لله عز وجل في واقع المسلم ، بدليل قول رسول الله ﷺ — في الحديث القدسي — : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها »[٥٤] .

ومما لاشك فيه أن العبد عندما يصل إلى مرحلة أن يسمع بالله ويبصر بالله فإنه يقينا سيكون دليلا على الحق .

وقيمة الوصول إلى مرحلة الربانية في الفهم هي تفادي أثر التناقض أو المفارقة بين الحق الإسلامي وبين التكوين الشخصي للإنسان باعتبار أن التفكير العقلي أثر لهذا التكوين الشخصي .

وعندما يكون هذا التناقض يحدث الخطأ في الفهم إذ يصبح تفكير الانسان من منطلق متناقض مع الإسلام .

فإذا كانت صفة الجبن مثلا هي موضع التناقض بين التكوين الشخصي والحق الإسلامي فسيكون الإستدلال عند هذا الجبان متجها نحن اثبات صواب كل ما يتفادى به الخطر والمخاوف ، وهكذا ..

ومن هنا تأتي قيمة الربانية بمعنى التوافق بين التكوين الشخصي للإنسان ، والحق في الإسلام ، كما تأتي بمعنى الحكمة .

ولهذا جاء في تفسير[*] قول الله : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٧٩] .

---

(٥٤) البخاري في (٣٤٠ / ١١) عن أبي هريرة .

(*) انظر تفسير ابن كثير للآية .

قول ابن عباس : ربانيين أي حكماء علماء حلماء .

وقول سعيد بن جبير : ربانيين أي حكماء فقهاء .

وقول عبد الله بن مسعود : ربانيين أي حكماء أتقياء .

وواضح أن الحكمة هي القاسم المشترك في كل المعاني التي جاءت في تفسير معنى الربانية . ولذلك يربط الامام الشاطبي بين معنى الربانية والحكمة فيقول في كتاب الموافقات بعد كلام : « ويسمى صاحب هذه المرتبة الرباني والحكيم والراسخ والفقيه والعاقل ، وكذلك ارتباط معنى الربانية بمفهوم الدعوة ، ارتباطاً واضحا من النص القرآني : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٧٩] والذي يفسره قول علي بن أبي طالب : الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها(**) .

وقول ابن القيم : « وجهاد النفس أربع مراتب :

١ ــ أن يجاهدها على تعلم الهدى .

٢ ــ أن يجاهدها على العمل بعد علمه .

٣ ــ أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه .

٤ ــ أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فان السلف مجمعون على أن العالم لا يسستحق أن يسمى « ربانيا » حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ويدعو إليه ، فمن علم وعمل فذاك يسمى عظيما في ملكوت السموات » . وبعد تقرير قيمة الربانية أو الحكمة في فهم الإسلام يبدأ تحديد منهج الوصول بالمسلم إلى تلك المرحلة ، وهو منهج التربية .

* * *

(*) الرسائل الكبرى للإمام ابن تيمية .

● **منهج التربية** : ومنهج تربية الدعاة هو التوجيهات المرتبطة بمرحلة الاعداد لأصحاب الدعوة . ويتحدد من ناحيتين : ناحية عملية وهي أن أحكام هذا المنهج مرتبطة بالأحكام التي بدأت بها الدعوة باعتبار أن مرحلة الاعداد هي البداية الطبيعية للدعوة كما كانت في عهد رسول الله ﷺ .

وناحية شرعية : وهي أن أحكام هذا المنهج نوافل وليست فرائض إذ أن الفرائض تكليف عام لا يجوز فيه تخصيص مسلم داعية في مرحلة اعداد دون غيره من المسلمين .

وكون أحكام هذا المنهج ليست فرائض . فإن لذلك قيمة تربوية . وهي تحقق الرغبة الذاتية في الطاعة التي لا تقف عند حد التكاليف الشرعية المفروضة . وهذا أمر مفترض في الدعاة .

كما أن النوافل هي السبب الشرعي الذي يتحقق به حب الله للعبد . بدليل قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن الله عز وجل : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما أفترضته عليه ، ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .. » وفي حديث آخر : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل : أن يا جبريل : ان الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل أهل السماء : يا أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم ينادي أهل السماء : يا أهل الأرض إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبوه ثم يوضع له القبول في الأرض »(٥٥) . وهذا أهم ما يتحقق لصاحب الدعوة وهو أن يكون القبول موضوعا له في الأرض لأن هذا يعني أن يتحقق القبول لدعوته كذلك .

وتبدأ أحكام منهج التربية كما بدأت في عهد رسول الله ﷺ .

---

(٥٥) البخاري مختصراً (٣٤٠ / ١١) ومسلم [٢٦٣٧] عن أبي هريرة .

أولا ــ التهجد :

وهو من أول ما أمر الله به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [سورة المزمل الآيات : ١ ــ ٤] .

وفيه لتكوين الداعية عدة عناصر :

الاخلاص : وهو أن يبتغى الداعية بدعوته وجه الله سبحانه وتعالى ، والممارسة العملية التي تنشيء الاخلاص في نفس المسلم هو أن يعمل عملا لا يراه فيه أحد من البشر ، وكلما كان هذا العمل الخفي فيه جهد كلما كان أكثر حماية من الرياء وتثبيتا للإخلاص ، إذ أن الرياء أقرب إلى الانسان في العمل المجهد المعلن من العمل الذي لا جهد فيه ولا إعلان . والتهجد هو هذا العمل الخفي المجهد .

التميز : وهو ضرورة شخصيه للداعية . لأن الشعور بالتميز هو الذي يعطي للمسلم في نفسه دافع الدعوة لغيره .

والتهجد مصدر أساسي لهذا الشعور حيث أن هذه الصلاة لا يقوى عليها إلا من تفرد وتميز بالعزم والقوة .

وكما أن التهجد شعور بالتميز فهو في نفس الوقت حماية من الغرور لأنه تميز من خلال عبادة الله عز وجل .

وقد قصد النبي ﷺ أن يؤكد شعور التميز من خلال صلاة العشاء فأخرها إلى أن قال عمر ــ : يا رسول الله نامت النساء ونامت الأولاد . فقال رسول الله : أبشروا ، إنه لا يصلي في هذا الوقت على وجه الأرض أحد غيركم[٥٦] .

---

(٥٦) البخاري (٤٩ / ٢) ومسلم رقم [٦٣٨] عن عائشة .

فوضح أن تميز الصحابة بالصلاة في وقت لا يصلي فيه أحد غيرهم كان هدف رسول الله ﷺ من تأخير الصلاة .

وصلاة التهجد بوقتها من الليل تحقيق لهذا الهدف .

الارادة : وهي نوعان في الانسان ، ارادة البدء : وشواهد هذا النوع أنك قد تجد صعوبة في أن تجعل انسانا يبدأ عملا ولكنه بمجرد أن يبدأ يسهل استمراره .

وارادة الإستمرار : وشواهد هذا النوع أنك لا تجد صعوبة في أن تجعل انسانا يبدأ عملا ولكنه بمجرد أن يبدأ لا يلبث أن يتوقف .

وصلاة التهجد معالجة لنوعى الارادة : البدء والإستمرار ، وهذه المعالجة تتم من خلال كيفيتين ثابتتين لها عن رسول الله ﷺ .

كيفية لمعالجة ارادة البدء وهي الواردة عن ابن عباس : « كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعة »[٥٧] .

حيث نجد في هذه الكيفية ست بدايات يتم من خلالها تربية الداعية على ارادة البدء .

وكيفية لمعالجة ارادة الاستمرار وهي الواردة عن عائشة : « كان رسول الله ﷺ يصلي أربعا لا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعا لا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثا »[٥٨] .

حيث نجد في هذه الكيفية طول الصلاة ليتم من خلالها تربية الداعية على ارادة الاستمرار .

---

(٥٧) البخاري (٢٨٧ / ١) ومسلم رقم [٧٦٣] عن ابن عباس .

(٥٨) البخاري (٣٣ / ٣) ومسلم رقم [٧٣٨] عن عائشة .

الإتزان النفسي : والتهجد يحقق في الداعيه صفة الاتزان النفسي في ظروف الاستضعاف التي قد تفقد الداعية تلك الصفة لأن الاستضعاف شعور بالضعف وقلة حيلة وهوان على الناس وهي أمور قد تحيط بالمستضعف فتدفعه إلى محاولة الافلات من هذا الشعور والتخلص من هذا الحال فلا يتحرك بمقتضيات المرحلة بل يتصرف برغبة الافلات والتخلص .

ولذلك كانت الصلاة هي التوجيه الأساسي لتحقيق صفة الاتزان لأن الصلاة هي التي تصب في كيان المستضعف الاحساس بذاته ومكانته في هذا الوجود فتتم معالجة الآثار الناشئة عن حال الاستضعاف وذلك في قول الله عز وجل : ﴿ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[سورة النساء الآية : ٧٧] .

* * *

ثانيا ـــ الصيام :

ويشترك مع التهجد في معالجة الارادة ولكن من حيث الأصل .

إذ أن أصل الارادة في الانسان هي ارادة الامتناع بدليل أن تجربة الارادة والعزم التي خاضها آدم في الجنة كانت ارادة امتناع : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .
[سورة البقرة الآية : ٣٥]

وارادة الامتناع في الإنسان ارادة مطلقة ولهذا تقوم الأحكام الشرعية على أن يكون (الأمر) بقدر الاستطاعة أما (النهي) فهو مطلق في وجوب الانتهاء عنه .

بدليل قول رسول الله ﷺ : « ما أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه »[٥٩] .

---

(٥٩) البخاري (٢٥١ / ١٣) ومسلم [١٣٣٧] عن أبي هريرة .

وبهذا يصير الامتناع (النهي) مقياسا مطلقا للارادة غير (الأمر) المقيد بحد الاستطاعة .

* * *

ثالثا ـــ الانفاق :

وضرورته في تكوين الداعية هي حمايته من صفة البخل وكسبه لصفة الكرم حيث يتحقق له من خلال ذلك حمايته من صفة الجبن وكسبه لصفة الشجاعة . وذلك لأن الجبن والبخل صفتان متلازمتان في الطبع الانساني ، وكذلك صفة الشجاعة والكرم ، بدليل قول رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وغلبة الدين وقهر الرجال »(٦٠) .

* * *

رابعا ـــ الذكر :

ويحقق في التكوين الشخصي للداعية عدة عناصر :

اكبار الله عز وجل .. وهو توجيه مهم لصاحب الدعوة في مواجهته للجاهلية بضخامتها وامكانياتها ، ولهذا كان من التوجيهات الأولية لرسول الله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ ﴾ [سورة المدثر الآيات : ١ ـــ ٣] .

ـــ الانشغال بالله .. وهو من أهم مقتضيات الدعوة إذ أن الداعية الصادق هو الذي يعيش بدعوته كل لحظات حياته .. وذكر الله باعتبار كثرته واطلاقه من التوقيت المحدد : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾[سورة الأحزاب الآية :٣٥] . فإنه يحقق الانشغال بالدعوة من خلال الانشغال بالله عز وجل .

ـــ الاطمئنان القلبي .. وهو ضرورة لمواجهة الشدائد التي تنتظر كل داعية في

---

(٦٠) البخاري عن أنس (١٧٨ / ١١) ومسلم [٢٧٠٦] .

طريقه : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الرعد الآية : ٢٨]

— وفي الذكر حماية للداعية من الآثار الذهنية المترتبة على الشعور بالتناقض بين التصور الذي يعيش في ذهن المسلم وبين الواقع الجاهلي الذي يعيش فيه المسلم .

والانسان بطبيعته يحاول التخفيف من وطأة التناقض بين تصوره وواقعه بخيال ذهني يترتب عليه أكبر ضرر يقع على عقله .

والذكر باعتباره استيعاب للطاقة الذهنية بصورة شرعية صحيحة فإنه يحمى هذه الطاقة من أن تبدد في خيال يبعد عن الواقع ويضعف التفكير ويقلق النفس ويجمد الحركة .

وبالالتزام بمنهج التربية وتحقيق صفة الربانية يكون المسلم الحكيم .. وتنشأ دلائل الحكمة في أسلوب الدعوة من خلال سلوك الدعاة وتصرفاتهم السليمة ومواقفهم الصحيحة .

وأبرز هذه الدلائل : هي أن يصبح المسلم الحكيم بذاته دليلا على الحق . مثل عمر الذي وافقه الله سبحانه وتعالى على رأيه ، إذ يقول : « وافقت ربي — أو وافقني ربي — في ثلاث : في الحجاب ، وتحريم الخمر ، وأسرى بدر »[٦١] وبلغ عمر حد النصح لرسول الله ﷺ ، وقبل رسول الله ﷺ نصيحته ، وذلك عندما رأى أبا هريرة يقول : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة . فيضربه في صدره ويذهب به لرسول الله ﷺ فيجد أن رسول الله هو الذي أمره بذلك . فيقول في أدب : يا رسول الله ، إذن يتكلوا ، فيستجيب الرسول لنصحه ويقول إذن يتكلوا .. ومنع أبا هريرة . من أن يقول الكلمة[٦٢] .

---

(٦١) البخاري في المناقب (١٦٨ / ٨) ومسلم رقم [٢٣٩٩] عن عمر موقوفاً .

(٦٢) البخاري في الإيمان ومسلم [٣١] في الإيمان أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومثلما حدث من سعد بن معاذ عندما حكمه رسول الله ﷺ في يهود بني قريظة بعدما غدروا في غزوة الأحزاب . فقال : تقتل مقاتليهم وتسبى زرايهم ، فقال له رسول الله ﷺ : « حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات »(٦٣)

ومن دلائل الحكمة أن يستطيع المسلم الحكيم تجريد النص من الخطأ في الفهم أو التحريف في الكلم .

مثلما قال علي بن أبي طالب في الخوارج عندما رفعوا المصاحف على أسنة الرماح وقالوا نريد حكم الله ، فقال : « كلمة حق يراد بها باطل »(٦٤) .

ومن دلائل الحكمة صفة التلقائية في الفهم . مثلما حدث من أبي ثمامة عندما بايع رسول الله ﷺ على الاسلام(٦٥) فذهب إلى قومه وقال : لقد أسلمت .. ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله ﷺ . فأدرك باسلامه أن هذا يعني الولاء وأن الولاء يقتضي أن لا يتصرف في أمور حياته حتى لو كانت حبة قمح حتى يأذن في ذلك من أعطاه ولاءه .

ومن دلائل الحكمة . ذاتية التصرف . مثلما حدث من أبى بصير الذي أعاده رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بعد معاهدة الحديبية التي نصت على أن يرجع رسول الله ﷺ كل مسلم يأتى إليه من قريش . فأصبح مسلما ليس له صلة بقيادته ولا تملك له قيادته أي توجيه ، فيتصرف تصرفه الذاتي الصحيح الذي كان سببا مباشرا لالغاء نص ارجاع المسلمين إلى قريش في المعاهدة .

يقتل من كان معه من مشركى قريش في طريق الرجوع بعد أن يخدعهم ..

---

(٦٣) البخاري (٤١١ / ٧) ومسلم رقم [١٧٦٨] عن أبي سعيد .

(٦٤) مسلم رقم [١٠٦٦] موقوفاً على علىّ رضي الله عنه .

(٦٥) راجع قصته من سيرة ابن هشام (١٦٢ / ٤) .

ويحتل موقعا بين مكة والمدينة ويقطع على قريش طريقها . فيسمع به رسول الله ﷺ فيقول : « مسعر حرب لو كان معه رجال »[٦٦] فيسمع بقول رسول الله كل من أسلم من قريش فيذهب إليه ، ويشترك معه ، وتقوم حرب[*] تبعث بعدها قريش إلى رسول الله ترجوه أن يمنعهم وتطلب بنفسها الغاء ما اشترطته في المعاهدة .

أما دلائل الحكمة من الناحية الأخلاقية فقد ورد فيها عدة نصوص منها :
قول رسول الله ﷺ : « أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة والين قلوبا »[٦٧]
فصارت رقة الفؤاد ولين القلب هي المرجع الأخلاقي للإنسان الحكيم .

وقولهم : الحكمة هي : « ضبط النفس والطبع على هيجان الغضب »[*] .

وقولهم : « الحكمة هي التواضع » .

حيث سيكون المسلم الحكيم برقة القلب ولين الفؤاد متجها نحو تحقيق غايته بروح المسالمة والمصالحة .

وسيكون بضبط النفس والبعد عن الغضب في حماية من أي تفكير انفعالي أو قرار انتقامي أو أسلوب أهوج ..

أما صفة التواضع فهي أهم الصفات الأخلاقية التي سنخرج بها من مرحلة الفتنة ، حيث أنها صفة الباحث عن الحق .

---

(٦٦) قطعه من حديث طويل أخرجه البخاري (٣٢٩ / ٥) .
(*) تماثل في أسلوبها ما يطلق عليه الآن حرب العصابات .
(٦٧) سبق تخريجه رقم [٧] .
(*) تاج العروس للزبيدي .

وذلك لقول الرسول الله ﷺ : « الكبر هو بطر الحق وغمط الناس »[٦٨] والكبر هو الصفة المقابلة للتواضع ولذا لزم التركيز على هذا الخلق في تحديد دلائل الحكمة .

ومن هنا كان الربط بين التواضع والحكمة في قول الله عز وجل :
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء الآيتان : ٣٧ — ٣٩] .

وكما قررنا في تحديد معنى الربانية أن أي مفارقة أو تناقض بين الانسان وطبيعة المنهج تنشيء (الخطأ) في الفهم ، نقرر أن أي مفارقة أو تناقض بين العلاقات الانسانية في مجال الدعوة هي التي تنشيء « الخلاف » .

ولما كان التواضع هو الشعور الشرعي عند المسلم بذاته وبغيره من المسلمين أصبح يمثل الأساس الأول في مهمة انشاء العلاقة الفكرية الصحيحة في مجال الدعوة .

وإذا كانت كل صفات الحكمة تحقق في النهاية صفة التواضع فإن ما يحفظها بعد تحققها عدة وصايا أهمها :

كراهية المدح وفيه جاء قول رسول الله ﷺ : « احثوا في وجوه المداحين التراب »[٦٩] حتى لا يكون للمادح أي تكريم أو تقدير في نفس من يسمع المدح ، لأنه بمقدار تكريم المادح يكون نقص من يسمع مدحه .

---

(٦٨) مسلم في الإيمان رقم [٩١] عن ابن مسعود .

(٦٩) مسلم رقم [٣٠٠٢] من حديث ابن عمر .

وقد جاء في باب ما يكره من التمادح عن رسول الله ﷺ أن قال لرجل يمدح أخاه : « ويحك ، قطعت عنق صاحبك »[٧٠] .

ولقد كره رسول الله ﷺ أدنى تجاوز للشعور بالنفس حتى أنه عندما سمع رجلا يطرق الباب فقيل له من ؟ فقال : أنا ، فعرف الغضب في وجه رسول الله ، وقال : « أنا أنا .. أنا أنا »[٧١] فأصبح من صفة التواضع أن الإنسان يعرف الناس بنفسه ولا يفترض أن أحدا يعرفه دون أن يعرف هو بنفسه .

وحب التميز في الإنسان هو المدخل إلى الكبر ، ومعالجة هذا الخطر تتحقق بتوجيه حب التميز إلى الآخرة ودليل تلك هو قول رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة كانت له حرزا من الشيطان ، ولم يأت أحد يوم القيامة مثله إلا رجل زاد عليه »[٧٢] .

كما تتحقق الحماية من حب التميز بأن تقرن الأمور التي يرى فيها الإنسان تميزا بمسئولية ذلك التميز مثل ميزة الامارة التي قال فيها رسول الله ﷺ : « إنكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة »[٧٣] وقال : « إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها »[٧٤] .

ولذا كان من أساليب التربية ذكر المسئولية التي تقع على المسلم إذا كان هناك

---

(٧٠) البخاري (٢٧٤ / ٥) ومسلم رقم [٣٠٠٠] عن أبي بكرة .

(٧١) البخاري (٣٥ / ١١) ومسلم رقم [٢١٥٥] من حديث جابر .

(٧٢) البخاري (١٢٥ / ١٣) ومسلم [٢٦٩١] عن أبي هريرة .

(٧٣) البخاري (٢٥ / ١٣) عن أبي هريرة .

(٧٤) ومسلم رقم [١٨٢٥] في الإمارة عن أبي ذر .

اضطرار لذكر ميزته مثلما حدث من الراهب مع الغلام في قصة أصحاب الأخدود عندما قال له : « أي بني قد أصبحت أفضل مني ؟ قال له بعدها : وانك ستبتلى » (٧٥) .

* * *

(٧٥) مسلم رقم [٣٠٠٥] عن صهيب .

وبجانب قاعدة ذكر الميزة نذكر ما يقابلها وهي قاعدة النقد وفيها يجب عند ذكر الخطأ أن نذكر قيمة الانسان المخطيء حتى لا يكون في ذكر الخطأ أو التقصير فقدان لثقته بنفسه مثلما قال رسول الله ﷺ في عبد الله بن عمر : « نعم العبد عبد الله .. لو كان يقوم من الليل» البخارى (٨٩ / ٧)ومسلم [٢٤٧٩] وبذلك لا يكون ذكر الميزة سببا للغرور بالنفس ولا يكون ذكر الخطأ سببا لفقدان الثقة بالنفس .

وبنفس المنطق يأتي الحديث الذي رواه البخاري « كاد الخيران أن يهلكا » أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عندما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ فنلاحظ وصفهما (الخيران) قبل ذكر (أن يهلكا) .

ضـــرورتان

وبعد أن بدأنا انشاء الواقع الصحيح للدعوة بتكوين الجماعة المسلمة وإحكام الفكر وتكوين الفرد المفكر يبقى أمران ضروريان لتمام مهمه انشاء هذا الواقع .

أولهما ــ تحديد علاقة هذه الجماعة المسلمة بالواقع التاريخي للدعوة :

وهذا التحديد شرط عملي هام لكي تكون هذه الجماعة امتدادا صحيحا للواقع التاريخي للدعوة وذلك بأن تجتمع فيها كل تجارب الدعوة السابقة . وهذا ما يتحقق بربط الجماعة القائمة بالواقع التاريخي برباط التجربة .

وفي ذلك تحقيق لأهم مقتضيات الحكمة حيث جاء في تعريف الحكمة علاقتها بالتجربة لقول رسول الله ﷺ : « لكل حليم عثرة ولكل حكيم تجربة »[٧٦] ولقولهم في تعريف الحكمة : « رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب » .

ـ والأخذ بالتجربة من أهم ضرورات المواجهة مع الجاهلية لسبب عملي واضح وهو أن الجاهلية تجربة واحدة بدأها إبليس بمعصيته واستكباره وسيظل قائما عليها إلى يوم البعث .

وهذا معناه أن الجاهلية تاريخ واحد وأن المواجهة من جانبها للاسلام قائمة بخبرة تاريخية كاملة ، ولنا أن نتصور بتلك القاعدة مدى التطور الجاهلي في

---

(٧٦) سبق رقم [٩] .

المواجهة عندما يكون العامل الزمني الذي تتطور به هو هذا التاريخ القديم المستمر .

والمواجهة الاسلامية للجاهلية وهي تجربة تاريخية واحدة بتجارب مبتورة معناه فقد أكبر امكانيات القدرة الاسلامية في تلك المواجهة .

ولهذا تم لقاء مباشر بين موسى رسول بني إسرائيل وبين رسولنا عليهما الصلاة والسلام ليلة الاسراء والمعراج في السماء .

نصح فيه موسى نبينا أن يرجع إلى ربه يسأله تخفيف الصلاة وذلك من منطلق تجربته ومعاناته الفعلية مع بني اسرائيل .

واستجاب نبينا عليه الصلاة والسلام لنصيحة أخيه موسى ..

واستجاب الله عز وجل لسؤال نبينا ﷺ .. بالتخفيف وأصبحت الصلاة خمسا بعد خمسين [٧٧] .

غير أن الاستفادة الحقيقية من تجارب الدعوة السابقة رهن بالتقييم الصحيح لها فكرا وتطبيقا .

فمن ناحية الفكر والمنهج يتم التقييم على أساس الالتزام بالكتاب والسنة والفهم السلفي لهما .

ومن ناحية التطبيق والواقع فإن التقييم يتم على أساس بلوغ حد الاستطاعة ماديا وتنظيمياً لتحقيق الهدف المحدد للتجربة .

أما التقييم الخاطيء للتجربة فهو الذي يبتعد عن جوهرها الشرعي والحركي فيفقدها أثرها في واقع الدعوة حيث يصير التقييم بالابتعاد عن جوهر التجربة مجرد

(٧٧) البخاري في قصص الإسراء (٤٥٨ / ١) ومسلم [١٦٣] عن أبي ذر .

كلام نظري لا يتجاوز ناحيتها الشكلية أو نتائجها المادية ، وبناء على التقييم الايماني الصحيح فإن هناك تجارب اسلامية عظيمة وان لم يكن لها نتائج مادية في الواقع ولكنها أخذت تلك الصفة لتحقق المستوى الايماني الكامل فيها .

وهؤلاء هم أصحاب الشجرة يبايعون النبي ﷺ على القتال بصدق فيرضى الله عنهم دون أن يقاتلوا : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ .
[سورة الفتح الآية : ١٨]

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الحد الفاصل بين الخوف من الخطأ الذي يجعلنا نبذل أقصى الجهد لتحقيق صواب العمل وبين الخوف الذي يترتب عليه توقف العمل .

وبذلك فإن التقييم الصحيح للتجربة هو الذي يضع المسلم في سبيل ميسر للعمل الصحيح بعد أن ينفض عنه غبار الخطأ ويعيد إليه دافع الاستمرار مزودا بتجربة ماضية ليخوض بها تجربة مقبلة .

وإذا كان من الطبيعي ــ كذلك ــ أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الذي يرتفع بحقيقة الاخوة بين أصحاب التجربة فوق مستوى الخطأ ، حتى لا تكون حقيقة الاخوة مرهونة بصواب أو مفقودة بخطأ طالما أن قيام التجربة كان في حدود الايمان الصحيح ، ويسعنا في ذلك قول الله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر الآية : ١٠] .

وتقييم التجارب الاسلامية السابقة علينا ليس لمجرد اضافة خبرة أو زيادة معرفة ولكنها اعتراف للخير من أصله ، لأن أي تجربة حدثت في مجال الدعوة هي أحداث سبقنا بها دعاة نحن نليهم في استمرار الدعوة .

والخير على مستوى تاريخ هذه الأمة مرتبط بصفة السبق الزمني بدليل قول رسول الله ﷺ : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٧٨) .

وصفة السبق الزمني هي التي تعطي للأحداث صفة التجربة .

وهذه مقارنة قرآنية بين فترة ما قبل الفتح وما بعده من خلال الانفاق والقتال وذلك في قول الله ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

[سورة الحديد الآية : ١٠]

وما سبق يحدد قيمة التجربة على المستوى التاريخي للدعوة .

يبدأ بعده تحديد قيمة التجربة على المستوى الفردي وأثر التجربة في الداعية بصفة شخصية من خلال عدة نقاط .

أولا : أن التجربة أساس للتربية : ولذلك رعى كل الأنبياء الغنم قبل ممارسة الدعوة ليتزودوا من خلال تجربة الرعى بصفة السكينة والوقار .

ولعلنا ندرك قيمة الانسان وخطورة التعامل معه في مجال الدعوة بدون تجربة ، من خلال تزود الأنبياء بتجربة رعي الغنم قبل التعامل مع البشر .

ثانيا : أن التجربة مصدر للثقة ، ولذلك جعل الله موسى يخوض تجربة العصا عندما تصير حية في الوادي المقدس . قبل أن يذهب إلى فرعون : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

[سورة طه الآيات: ١٧ — ٢٠]

---

(٧٨) البخاري (٢٥٨ / ٥) ومسلم [٢٥٣٥] .

ورغم أن موسى ذهب إلى فرعون مزودا بتلك التجربة فإنه في موقف المواجهة أوجس في نفسه خيفة فما بالنا لو ذهب بغير تلك التجربة .

ثالثا : أن التجربة ضرورة لليقين : لأن التجربة واليقين يلتقيان في الواقع إذ أن الواقع هو مجال التجربة ومصدر اليقين ولذلك كانت رؤية زكريا لمريم في تجربة ملموسة للرزق بغير حساب هي مصدر يقينه بامكانية أن يرزق الولد بعد أن اشتعل رأسه شيبا : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾[سورة آل عمران الآية : ٣٧] .

رابعا : أن التجربة ضمان للصواب : ولذلك يعلمنا النبي ﷺ الحذر من معاودة الخطأ إذا حدث بالاستفادة من أي تجربة خاطئة فيقول : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين »(٧٩) .

* * *

الثانية ـــ العلاقة بين الجماعة المسلمة والمجتمع الجاهلي :

بمجرد قيام الجماعة المسلمة تنشأ مشكلة العلاقة بين تلك الجماعة والمجتمع الجاهلي الذي نشأت فيه ، وهذه المشكلة مرتبطة في منهج الدعوة بثلاث قضايا :

أولا : قضية وجود المسلم في المجتمع الجاهلي ، والأصل في هذه القضية هو النتيجة الفعلية لهذا الوجود وليس الوجود ذاته ، فإذا غلب على هذا الوجود معنى الاقرار للجاهلية كان خطأ .

وإذا غلب على هذا الوجود معنى الانكار على الجاهلية كان صوابا .

(٧٩) البخاري (٥٢٩ / ١٠) ومسلم رقم [٢٩٩٨] عن أبي هريرة .

وتنتفي صفة الاقرار عن وجود المسلم للجاهلية بالاستضعاف .

وتثبت له صفة الانكار بالانتماء إلى الجماعة المسلمة واعطائها الولاء .. وهذا من حيث الموقف كما تثبت له صفة الانكار بممارسة الدعوة وما تقتضيه من انكار لأي منكر وبراءة من كل باطل .. وهذا من حيث السلوك ، وثبوت الانكار على الجاهلية بالانتماء للجماعة وممارسة الدعوة هو الأصل في الأنكار ، أما الإعتزال فهو تصرف اضطراري يثبت الانكار بعد اليأس من الاستجابة للدعوة .

إذ لو كان الاعتزال هو الأصل في معنى الانكار لتقرر على المسلم بمجرد دخوله الاسلام ، وانتفى معنى الدعوة ، والتحديد العملي لضرورة الاعتزال يؤكد أن الإعتزال أصلا إنما يكون للمنكر وليس للناس في ذاتهم ، إذ أن الناس هم موضع الدعوة ، بدليل قول الله عز وجل : ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ [سورة النساء الآية : ١٤٠]

والأمر بالاعتزال كما هو واضح من الآية معلق بحال الاستهزاء بالآيات ، وبمجرد انتهاء حال الاستهزاء يكون القعود للدعوة .

ويظل اعتزال الناس معلق بحال المنكر الفعلي إلى أن يثبت على هؤلاء الناس استحالة مفارقتهم للمنكر فتصبح حياتهم بصفة دائمة مثل حال وقوعهم في المنكر الذي يجب اعتزالهم فيها ، فيتقرر الاعتزال بصفة دائمة .

وتأتي كل آيات الاعتزال لتثبت أن الاعتزال إنما يكون باعتبار ما عليه الناس من منكر وليس للناس أصلا .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ... ﴾[سورة مريم الآية : ٤٨] .

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ... ﴾[سورة الكهف الآية : ١٦] .

ثانيا : قضية تقييم المسلم للمجتمع الجاهلي .

وقيام الجماعة المسلمة يفرض على المسلم تقييم هذا الواقع الذي قامت فيه ، لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقيم الواقع لا يصل إلى حد الكمال والصواب .

وتقييم الجماعة المسلمة للواقع الجاهلي له أساسان :
ـــ أساس عقيدي يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع .
ـــ أساس حركي تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع .

أما عن التقييم العقيدي فإنه يعد من أبعاد التصور الاعتقادي الذي قامت به الجماعة ، وهؤلاء هم فتية الكهف يقول الله فيهم : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾[سورة الكهف الآيات : ١٣ ـــ ١٥] وواضح من النص أن إعلان عقيدتهم بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تبعه تلقائيا : ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ وهو تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم ، وقيمة تقييم الواقع الجاهلي لا تنتهي عند اعتبارها شرطا لصحة الاعتقاد الاسلامي ولكنها كذلك تكليف شرعي كلفنا الله به باعتبارنا شهداءه سبحانه في الأرض بدليل قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[سورة البقرة الآية : ١٤٣] وقول رسول الله ﷺ : « أنتم شهداء الله في الأرض »[٨٠] وإذا كان الإحكام أساس لمعنى

(٨٠) البخاري (٢٢٨ / ٣) ومسلم [٩٤٩] من حديث أنس .

الحكمة فإن ذلك يقتضي ألا تطغى مهمة الشهادة أو الحكم على الناس على مهمة دعوتهم وغاية هدايتهم .

كما تقتضي عدم تجاهل مهمة التقييم والحكم والشهادة في واقع دعوتنا لهؤلاء الناس .

وبذلك يتقرر بمقتضى الحكمة أن نكون « دعاة وشهداء » في إحكام بين المهمتين .

وأما عن التقييم الحركي فمن خلاله يتحدد أسلوب المواجهة المباشرة مع الجاهلية .

فالدعوة الاسلامية لا تتحرك في فراغ .. والجاهلية ليست وضعا ساكنا ، ولكنه وضع يمثل كل خصائص الحركة وإمكانيتها .. والعلاقة بين الاسلام والجاهلية يرسمها خط مشتعل للتضاد الحركي بينهما .

فالجاهلية دعوة بدليل قول الله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴿٢٢١﴾ ﴾[سورة البقرة الآية : ٢٢١] وقول الله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾[سورة غافر الآية : ٤١ ، ٤٢] .

والجاهلية تأثير وتأثر : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴿٦٣﴾ ﴾[سورة القصص الآية : ٦٣] وهكذا يكون الاستمرار .

والجاهلية التزام وتمسك ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾[سورة هود الآية : ٨٧] .

فأصحاب الجاهلية يعتقدون أنه لا حق لهم في التصرف في أموالهم كما يشاءون ، فهناك النظام الذي يجب اتباعه..

والجاهلية اصرار ومفاصلة : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢١٧] . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[سورة ابراهيم الآية : ١٣] .

والجاهلية حركة لقول الله : ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾[سورة ص الآية : ٦] ، ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾[سورة آل عمران الآية : ١٧٦] ، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[سورة البقرة الآية : ٢٠٥] .

والجاهلية قتال وانفاق : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[سورة النساء الآية : ٧٦] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾[سورة الأنفال الآية : ٣٦] .

تلك هي خصائص الجاهلية التي تسيطر بها على الانسان ..

وهذه قريش تشترط على رسول الله ﷺ أن يعيد اليها كل من أسلم . حتى جاء أبو جندل مسلما فأعاده المسلمون التزاما بالمعاهدة ، فيأخذه المشركون مقيدا بالحديد .

وتبعث في أثر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لتعيدهم اليها . ويقدمون الهدايا إلى قساوسة النجاشي ملك الحبشة من أجل اعادتهم .

وتزاحم قريش النبي ﷺ في مواسم الحج لتقاوم دعوته بعد أن رأته يدعو الناس .

وهذا أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة يسبقان النبي ﷺ إلى عمه

في لحظات موته فيحاول النبي ﷺ أن ينطقه الشهادتين فتنشأ لحظات الصراع في لحظات الموت من أجل التأثير على أبي طالب . فيقول النبي ﷺ : « يا عم قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله » فيقول أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ..[٨١]

وهذا حاكم(*) كافر يبعث رسالة إلى فرد مسلم قاطعته الجماعة لأجل خطأ وقع فيه ، فيقول له فيها : لقد علمنا أن صاحبك قد جفاك .. ما جعلك الله في دار هوان فأت الينا نكرمك !!(**) .

سبحان الله .. حاكم دولة كافر يطلب فردا مسلما في توقيت خطير ليؤثر عليه ويفتنه .

صراع على الانسان ...

مزاحمة في المكان .. وملاحقة في الطرق .. مطاردة في الأرض تربص وترصد .. مراقبة وتتبع .

هذه بعض ملامح الصراع والتي لا تزال قائمة .. بل تزداد .

ولعل هذه الملامح تكون واضحة لأصحاب فكرة التربية النظرية الهادئة .. هؤلاء الذين يتخيلون توقف الحركة الجاهلية .. ويطفئون في إحساسهم اشتعال الصراع ويفترضون أن الجاهلية ستتركهم يربون جيلاً اسلاميا ، وينشئون تجمعا قويا .

---

(٨١) البخاري (٢٢ / ٣) ومسلم رقم [٢٤] عن المسيب بن حزن .

(*) ملك دولة غسان .

(*) كعب ابن مالك .

ولعل الخطأ الأساسي عند أصحاب هذا الفهم هو :

الظن بأن الصراع بين الجاهلية والاسلام يرجع إلى التوقع الجاهلي بأن الاسلام يريد السيطرة فيتخيلون أن الابتعاد عن محاولة الوصول للسلطة هو الذي سيعطي للمسلمين فرصة الوجود ، وكمعالجة لهذا الاحساس الجاهلي . فإنهم يبدأون التجمع بعيدا عن قضية الجهاد . مرتكزين في منهجيتهم على التربية الفردية والتبليغ بالكلمة .

وهذا الظن خاطيء لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام يرجع إلى رفض الاسلام ذاته حتى لو تمثل في صورة فردية مجردة من أي قوة .

والقرآن يبين أن الرفض الجاهلي للوجود الاسلامي سيكون في غاية القسوة حتى لو كان هذا الوجود في أبسط صورة .

فيقول عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [سورة الجن الآية : ١٩] والصورة المرفوضة هنا هي أن عبد الله قام يدعو الله .. وهذا يعني أن المواجهة مفروضة على المسلم بمجرد إسلامه .

ويعني كذلك رفض أي مساومة جاهلية على المواجهة الكاملة بوجود مجرد من هدف الوصول للسلطة قد تسمح به الجاهلية بصفة مرحلية لتضمن عدم المواجهة . ثم تتمكن بعد ذلك من إنهاء هذا الوجود ، لأن الجاهلية تعلم يقينا أن هذا الوجود المسموح به مرحليا ليس له أي قيمة إسلامية . بل إنه إضافة جديدة للتمكين الجاهلي حيث يبرز هذا الوجود الخاضع ابتداء حجم التسلط الجاهلي .

واعتبار هذا الوجود المجرد من صفة المواجهة مرحلة من مراحل الدعوة ليس من الحكمة لأن المرحلية تصور يحكم دافع المواجهة في ضمير كل مسلم .

فلهذا تأتي نصوص المرحلية معبرة عن توجيه دافع قائم ، مثال قول الله :

﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [سورة النساء الآية : ٧٧] حيث أن الأمر بالكف يثبت وجود الدافع .

وحقيقة المواجهة ليست رهنا بقوة الجماعة ، إذ أنه من الممكن أن تتأكد مع الاستضعاف في صورة السرية باعتبارها صورة من صور المواجهة .

إذن فعلاقة صفة المواجهة بصفة المرحلية تتعلق بصورة المواجهة حسب مرحلة الدعوة ولكنها لا تعني إنعدامها في أي مرحلة من تلك المراحل ..

* * *

منهج الدعوة

وتحديد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة له مقدمة أساسية وهي الإحكام وقد سبق قول ابن القيم في الدرجة الأولى من الحكمة : « أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته » قوله : « ولما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعا وقدرا ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها ولها أوقات لا تتقدم ولا تتأخر كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره لا تتعدى بها حدها فتكون متعديا مخالفا لله ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة ولا تؤخرها عنه فتفوتها فالحكمة إذن فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي وتلك هي الحدود الأساسية للعمل الإسلامي » .

١ — ضرورة العمل . ٢ — صيغة العمل .
٣ — وقت العمل .

بحيث تتم هذه الحدود من خلال الإحكام بين جوانب مفهوم الحكمة .

وتحديد منهج الدعوة من خلال الإحكام بين جوانب المفهوم في التطبيق يقتضي عدة أمور :

* ألا تطغى مراعاة الواقع على الحق كما لا نتجاهل هذا الواقع في إحقاق الحق .
* ولا نفتقد في واقعنا الإحساس بالغاية ، كما لا نتخيل غاية دون واقع .
* ولا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم ، ولا ننتهي عند وجوده دون تحقيق الغاية به .

وحتى لا تطغى مراعاة الواقع على الحق ... .

يجب إثبات الحق في وضع المراعاة للواقع ولو بالتقرير القولي إذا لم يكن هناك القدرة على التحقيق الفعلي له ، والمثال التطبيقي لهذا المبدأ هو قول رسول الله ﷺ لعائشة : « لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل »[(٨٢)] .

فمراعاة أن القوم حديثو عهد بجاهلية لم يمنع إثبات الحق في جعل الكعبة على قواعد إسماعيل بتقرير رسول الله ﷺ القولي .

ومراعاة الواقع دون إثبات الحق هي التي تجعل من مجرد المراعاة ذاتا للمنهج بغير الحق .

كما لا نتجاهل الواقع في تحقيق الحق .

والمثال التطبيقي لهذا المبدأ هو ما فعله رسول الله ﷺ مع اليهود بعد غزوة الأحزاب : ذلك أن بني قريظة كانت ممن اشترك ضد النبي ﷺ في هذه الغزوة بعد أن تعاهدوا مع النبي ﷺ على الأمان معه ، وكانت بنو قريظة حليفة للأوس ، فأراد النبي ﷺ أن يحاسبهم على غدرهم الذي غدروه مع مراعاة هذا التحالف القائم بينهم وبين الأنصار حتى لا يغضب الأنصار لحلفائهم .. ويترتب على ذلك فتنة بين المسلمين .

فكانت الحكمة في ذلك هي أن النبي ﷺ أنزل بني قريظة على حكم حلفائهم . لكي يكون الحكم متضمنا للحق الذي يجب أن يكون ، وكذلك متضمنا لانهاء التحالف الذي كان قائما .

---

(٨٢) البخاري (٢٢٤ / ١) ومسلم رقم [١٣٣٣] عن عائشة .

عن أبي سعيد الخدري قال : « نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتى على حمار ، فلما دنا من المسجد قال للأنصار : قوموا إلى سيدكم أو خيركم ، فقال : هؤلاء نزلوا على حكمك . فقال : تقتل مقاتليهم وتسبى ذراريهم ، قال : قضيت بحكم الله ، وربما قال : بحكم الملك »(٨٣) .

ولعلنا نلحظ في الحديث قول الرسول ﷺ : للأنصار : قوموا لسيدكم ، والسبب في ذلك هو أنه ﷺ يريد أن يثبت له السيادة عليهم ليكون حكمه هو حكم الأنصار جميعهم .

ولا نفتقد في واقعنا الإحساس بالغاية والعاقبه لنرتفع فوق مشقة هذا الواقع وعقباته ، وهؤلاء هم صحابة رسول الله يطلبون منه الدعاء بالنصر في فترة الاستضعاف فيقول : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »(٨٤) .

وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام يعترضه حجر وهو يحفر الخندق مع الصحابه فيضربه ضربة ويقول : « الله أكبر فتحت الفرس » ويضربه الثانيه ويقول : « الله أكبر فتحت الروم »(٨٥) .

ثم لا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم لأنه ضمان الإحكام بين مراعاة

---

(٨٣) سبق برقم [٦٣] .

(٨٤) البخاري (١٦٤ / ٧) عن خباب بن الأرت .

(٨٥) أخرجه النسائي (٤٣ / ٦) من طريق أبي سكنية عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وسنده لا بأس به .

الواقع واحقاق الحق والاحساس بالغاية . حيث أن هذا الإحكام بين هذه الأمور هو البصيرة التي جاءت في قول الله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف الآية : ١٠٨] .

وفي العموم فإن أخذ هذا الدين بكل جوانبه هو شرط القيام به وفي هذا يقول النبي ﷺ : « لن يقوم بهذا الدين إلا من أحاط بكل جوانبه »[٨٦] .

فالبصيره صفة ذاتية للفرد الداعية ولذلك جاء النص بلفظه (أنا) ولفظة (ومن اتبعني) حيث يفيد اللفظان ثبوت الصفة الفردية .

وبعد هذه المقدمة الأساسية يتحدد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة .. من منطلقين :

أولا : الإحكام بين أبعاد العمل .

ثانيا : الإحكام بين مراحل العمل .

أما المنطلق الأول وهو الإحكام بين أبعاد العمل : فهو الإحكام بين مهمة التبليغ واستخدام القوة ، وقيام السلطة .

(أ) التبليغ بالكلمة : وتحقيق الحكمة فيه تقتضي ثلاثة أمور :
الأول : الإحكام بين الواقع العملي للدعوة ومهمة التبليغ .
الثاني : حكمة التبليغ .
الثالث : الصراع بالكلمة .

---

(٨٦) عزاه السيوطي في جامعة الكبير لـ « أبي نعيم » عن عليّ — رضي الله عنه — كما في كنز العمال (٨٣ / ٣) .

● الأول : أما عن الإحكام بين الواقع العملي ومهمة التبليغ :

فترجع قيمته إلى أن هذا الإحكام هو الذي يحمي طاقة الدعاة العملية من أن تتبدد في تجاوز الكلمة لحدودها ، لأن نسبة الطاقة العملية والكلامية في الإنسان نسبة عكسية .

وهذا معناه أن أي تجاوز للقدر الصحيح يترتب عليه مباشرة انحسار عملي في الواقع ، أما دليل التناسب العكسي بين الطاقة الكلامية والعملية في الإنسان هو هذا الموقف الذي كان فيه المسلمون على سفر فتلاحى رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فقال المهاجري يا للمهاجرين وقال الأنصاري يا للأنصار حتى كثر الكلام فأراد الرسول ﷺ أن يوقفه فسار بهم جميعا ولم يعرس(*) حتى أصابهم التعب فتوقف الكلام فأمرهم أن يعسكروا بعد التعب فيقول أحد الصحابة وهو يصف الحال الذي كانوا عليه : « فما أن وجدنا مس الأرض حتى نمنا »(٨٧) وبذلك أنهى رسول الله ﷺ ظاهرة الكلام باستيعاب الطاقة ، ولهذا يجب أن يكون الإحكام بين الكلمة والعمل أساسا في تحديد منهج الدعوة .. وتبليغ الحق ليس مجرد كلام ولكنه تصرف صحيح وتعامل سليم يتعامل به الدعاة مع الناس .

وهذا سليمان يدعو ملكة سبأ بموقفين عمليين دون دعوة مباشرة بالكلام .

وكان الموقف الأول لأثبات صفة الذكاء وقوة العقل ، فإنه أخذ العرش ونكره لها ثم عرضه عليها ، وسألها : « **أهكذا عرشك** » ؟ فأجابت : « **كأنه هو** »

(*) لم يسترح في سفره .

(٨٧) أخرجه البخاري (٦٤٨/ ٨) في التفسير ، ومسلم في « البر » رقم [٢٥٨٤] من حديث جابر بن عبد الله ورواه الترمذي وغيره والرجل المهاجري هو : جهجاه بن قيس الغفاري ، والأنصاري هو : سنان بن وبرة الجهني .

فكانت أعقل إجابة : فلم تقل هو ، لأنه منكر ولم تقل : ليس هو ، لأنه هو .

وكان الموقف الثاني لإسقاط الغرور عن نفسها : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل الآية : ٤٤]

وبإثبات الذكاء وإسقاط الغرور تمت الدعوة ودخلت في الإسلام .

وتحقيق الإحكام بين الكلمة والواقع يكون من خلال عدة أسس .

(أ) التركيز الأدبي في التبليغ ويعني تحقيق أكبر تبليغ للحقائق بأبسط الأساليب بأن تسهم كل كلمة في هذا التبليغ في تأكيد وإثبات هذه الحقائق .

ومن أجل هذه الصفة أعطى الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم[*] .

ومثال لتوضيح تلك الصفة في أحاديث رسول الله ﷺ . هو قوله : « أن المقسطين على منابر من نور على يمين عرش الرحمن يوم القيامة »[٨٨]. فتجد أن مضمون الحديث هو الاعلاء من شأن المقسطين ونجد أن كل ألفاظ الحديث قد ساهمت في تأكيد هذا المضمون بلا زيادة أو نقصان .

---

* أوتيت جوامع الكلام » صحيح ومن أتم ألفاظه ما رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند صححه الألباني « أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه (٨٩) ».

(٨٨) أخرجه أحمد بهذا اللفظ (٢٥٠ / ٢) عن أبي هريرة وأخرجه البخاري (١٢٨ / ٦) ومسلم رقم [٥٢٣] .

(فالمقسطون على منابر) أفادت معنى التعظيم ، (على منابر من نور) فزاد معنى التعظيم (على يمين عرش الرحمن) زادت معنى التعظيم (يوم القيامة) زادت معنى التعظيم .

ويدخل تحت صفة التركيز الأدبي . الأسلوب الاصطلاحي الذي يتم به التعبير عن المعاني الكثيرة بمفهوم واحد محدد مثال قول الرسول ﷺ لوفد عبد القيس عندما سألوه أن ينصحهم بنصيحة يرجعون بها إلى قومهم فقال : « أن تؤمنوا بالله ، ثم قال : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الايمان هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان .. »[٩٠] .

(ب) تحديد الأسلوب العملي لتطبيق أي حقيقة .. وهذه أبرز خصائص الحديث النبوي ، ومثاله قول رسول الله ﷺ : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا »[٩١] وإلى هنا يقرر الرسول حقائق ثم يقول : أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » محدداً الأسلوب العملي لتحقيق الحقائق المقررة .

(ج) رفض أي كلمة ليس لصاحبها واقع إيماني صحيح ..

ولذلك يرفض القرآن شهادة المنافقين لرسول الله ﷺ بالرسالة ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة المنافقون الآية : ١] .

فالآية تؤكد رفض شهادة المنافقين من أجل واقعهم غير الصحيح .

---

(٩٠) أخرجه البخاري (١٢٩ / ١) ومسلم رقم [١٨] عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٩١) أخرجه مسلم رقم [٥٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ولما كان المرفوض ذاته قضية صحيحة وهي شهادة بالرسالة للرسول ، فإن الآية تتضمن قبل رفضها من المنافقين لنفاقهم صحة هذه الشهادة في ذاتها وهي قول الله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ [سورة المنافقون الآية : ١] ، قبل قوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[سورة المنافقون الآية : ١] ، فعندما تكون القضية هنا واحدة وهي الشهادة بالرسالة .

فيؤكدها القرآن بذاتها . ويرفضها من المنافقين .

فإن هذا يثبت إرتباط قضية الدعوة بصفتها المجردة بالواقع الايماني والعمل الصحيح لأصحاب الدعوة .

● **الثاني : حكمة التبليغ وتتحقق بثلاثة أمور :**

(أ) تصور الداعية عن مهمة التبليغ :

وهذا التصور يرتكز على عدة حقائق :

ـــ أن الدعوة مجرد سبب في تحقيق غاية الهداية ، وهذه الحقيقة تحمي الداعية من الغرور إذا تحققت الاستجابة ، ومن اليأس إذا كان الإعراض .

كما أن هذه الحقيقة تحقق للداعية توازنا تجاه الناس الذين هم موضع دعوته ، فلا يلاحق بالتبليغ فردا تأكد إعراضه أو يهمل آخر لم يتم إبلاغه .

ـــ إن الداعية بدعوته حجة ، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يبذل أقصى طاقته في التبليغ كاملا وواضحا مستغلا في ذلك أي فرصة يراها متاحة لهذا التبليغ ، كما أن هذه الحقيقة تحمي الداعية من أن يبدل أو يغير في دعوته ، ودليل ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [سورة الكهف الآية : ٢٩] .

ـــ إن الدعوة نجاة للداعية نفسه وعذر له عند الله ، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يواصل دعوته بصرف النظر عن موقف من يدعوهم ، ودليل ذلك قول الله :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأعراف الاية : ١٦٤] .

ومع كون الدعوة سبب هداية وحجة على الناس وإعذار للداعية تأتي الحقيقة الأخيرة وهي :

— أن الدعوة حرص كامل من الداعية على من يدعوهم وهذا صاحب سورة ياسين يدعو قومه فيقتلوه ويدخل الجنة وبالرغم من ذلك فإنه لا ينسى قومه الذين قتلوه ولا يخفي أمله في إيمانهم وهو في الجنة : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [سورة يس الآيتان : ٢٦ ، ٢٧] .

(ب) نظام التبليغ :

والأساس في نظام التبليغ هو عرض قضية التوحيد ابتداء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله . وهي **حد الإسلام** ، وبذلك يتقرر خضوع الناس لله عز وجل ليبدأ تبليغ التكاليف الشرعية . والدليل قول رسول الله ﷺ : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم »(٩٢) ، ولعلنا نلاحظ في الحديث : أن مفهوم الدعوة مرتبط بالشهادتين وأن بقية الأحكام علم يقتضيه الاستجابةلتلك الدعوة ، ولذلك قال في الشهادتين « أدعهم » وفي بقية الأحكام « فأعلمهم » .

كما نلحظ : ارتباط التبليغ بموقف من يسمعونه ، فإن كان الاستجابة يتقرر استمرار التبليغ ، وإن كان الإعراض فإن التبليغ يجب أن يأخذ صورة المواجهة

---

(٩٢) أخرجه البخاري (٣٢٢ / ٣) ومسلم رقم [١٩] عن ابن عباس .

والمعالجة لهذا الأعراض ، ولذلك اشترط الرسول ﷺ الطاعة في كل قضية للإنتقال إلى تبليغ قضية أخرى فقال : « فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم » .

والبدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله يقتضي تقييم الواقع الإعتقادي الذي سنتجه إليه بالتبليغ . لأن هذا التقييم هو الذي سيتحدد به قضية البدء بصورتها المباشرة ، فإذا كان الواقع الذي سنتجه إليه بالتبليغ أهل الكتاب مثلا كان البدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله مع تحديد المدلول الصحيح للكلمة بما ينفي أي إنحراف لمدلول اللفظ عندهم .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « فوالله ما سمع به يهودي ولا نصراني إلا شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن العزير عبد الله ورسوله ، إلا أدخله الله الجنة »[*] .

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يعطى تقييمه للواقع الذي سيوجه إليه الدعوة قبل أن يبعث الدعاة ، ويقول : « إنك ذاهب إلى أهل كتاب .. » وهكذا .

والبدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله يمثل أعمق بعد اعتقادى يسهل بتحقيقه اعتناق كل أصول الدعوة ، ولهذا لما جاء المشركون إلى أبي بكر الصديق وقالوا أن صاحبك قد زعم أنه أسرى به . فقال : « لو قال ذلك فقد صدق ، لقد صدقته في أكبر من ذلك »[٩٣] وهذا يعني أن التصديق في الحقيقة الكبيرة يفتح طريق التصديق أمام الحقائق الأخرى في نفس الإنسان .

(*) متفق عليه : البخاري (٤٧٤ / ٦) ومسلم رقم [٢٩] عن عبادة بن الصامت .

(٩٣) أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق بن كيسان عن الزهري عن أبي سلمة سمعت جابراً يقول انظر الفتح (١٩٩ / ٧) .

وله طريق أخرى عن معمر بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة انظر ابن كثير (٢٧٥ / ٤) .

وبعد تحديد نظام التبليغ بالإعتبار المنهجي ، تبقى إضافة في هذا التحديد بالإعتبار العملي وهي أن الدعوة قد تقتضي عمليا الدخول في مواجهة مع الجاهلية من خلال أي قضية غير قضية التوحيد وعندئذ يكون الموقف الإسلامي ، هو قبول المواجهة حتى لا يعطي الرفض صورة العجز عنها ، وقد وضحت هذه الحقيقة عندما سأل اليهود نبينا عليه الصلاة والسلام عن الروح ، ولم ينزل الوحي ، فحزن النبي حزنا شديدا وقالت اليهود ذهب عنه شيطانه رغم أن سؤال الروح لم يكن داخلا في حد الإسلام ، ولكن تأخر الإجابة هو الذي أحزن النبي ﷺ هذا الحزن الشديد ، غير أن قبول المواجهة يكون بعدة اعتبارات أهمها :

الحذر من أن تتضمن المواجهة في غير قضية حد الإسلام إقرارا ضمنيا لما عليه أصحاب الجاهلية من بطلان في الإعتقاد ، وذلك بتأكيد أن المواجهة مدخل إلى الإسلام وليست داخلة في حد الإسلام . كذلك الانتباه إلى الهدف الجاهلي إلى جر الفكر الإسلامي إلى قضايا تصرف بها العقل الإسلامي عن فكر المواجهة الصحيح ، وذلك بأن تكون المواجهة بالقدر الذي يثبت قدرة الفكر الإسلامي على مواجهة أي قضية .

(ج) الأسلوب المباشر في التبليغ :

- المخاطبة بقدر العقل .. وهو مبدأ متفق على ضرورته والمقتض العام للمخاطبة بقدر العقل هو البساطة والوضوح ولذلك قال علي ابن أبي طالب : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله وعنه أيضا : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

ولذلك يعتبر معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن أي كلمة غير واضحة المعنى تكون مجانبة لمعنى الحكمة : وزيغ عنها . فيقول كما روى أبو داود : (**)

(**) أخرجه أبو داود في كتاب السنه (٣٦٣ / ١٢) من طريق يزيد بن عميرة عن معاذ موقوفاً —

وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ... قال قلت لمعاذ ما يدريني (رحمك الله) أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ... قال بلى : اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها ما هذه .... قال ابن إسحاق عن الزهري قال : بلى ما تشابه عليك من قول الحكيم حتى تقول ما أراد بهذه الكلمة ..) .

ولعلنا نلاحظ خطورة الكلمة غير الواضحة المعنى من وصفها بكلمة الضلالة ولكن إدراك الصورة التطبيقية لهذا المبدأ هو الذي سيعطيه قيمته . وأحاديث رسول الله ﷺ هي التي توضح لنا الملامح الصحيحة في التطبيق .

* فعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . فيقول له رسول الله : « قل آمنت بالله ثم استقم .. »[٩٤] رواه مسلم .

فدل السؤال على أن أسلوب التفكير عند السائل هو التفكير الكلي فاتفقت الاجابة مع الأسلوب .

* بينما يأتي سائل آخر — بغير أسلوب هذا السائل — فيقول للرسول ﷺ : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قيل : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قيل : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » فيقول السائل : ولو استزدته لزادني[٩٥] .. وهذا دليل على تجاوب رسول الله ﷺ مع السائل في أسلوب تفكيره التحليلي والمتأني .

* ويأتي أعرابي آخر تقول الصحابة فيه : (يسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول)[٩٦] وهذه طبيعة السائل .. فيقول : يا محمد :

---

(٩٤) مسلم رقم [٣٨] عن سفيان بن عبد الله الثقفي .

(٩٥) سبق تخريجه رقم [٣٤] .

(٩٦) أخرجه البخاري (١٠٦ / ١) ومسلم رقم [١١] عن طلحة بن عبد الله .

ــ ماذا فرض الله علي في اليوم والليلة ؟
ــ قال خمس صلوات إلا أن تطوع ..
ــ قال : ماذا فرض الله علي في العام ؟
ــ قال : صيام شهر إلا أن تطوع ..
ــ قال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص .
ــ قال : أفلح أن صدق ، أو دخل الجنة أن صدق .. (متفق عليه) وواضح من طبيعة السائل كما وصفتها الصحابه ، والأسلوب الذي سأل به .. عنصر السرعة

وواضح كذلك تجاوب رسول الله ﷺ بسرعة الاجابة التي لاحقت كل أسئلته .

* بينما يأتي سائل آخر بغير الأساليب السابقة ليسأل النبي ﷺ .

فيقول : « أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت عنه النبي ﷺ ، قلنا يوحى إليه ، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ثم إنه مسح عن وجهه الرحضاء » .

فقال : أين السائل آنفا ؟ وخير هو (ثلاثا) إن الخير لا يأتي إلا بالخير وأنه كما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم كلما أكلت ، حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت »[٩٧] .

ولعلنا نلحظ عمق الإجابة بما يتفق مع عمق السؤال وخصوصا عندما نحاول تفسير هذه الإجابة .. ومضمونها أنه مثلما ترعى بقرتان (مما ينبت الربيع) ، فرعت واحدة وأكلت بصورة خاطئة فحبطت ، وماتت ، ورعت الأخرى وأكلت

---

(٩٧) أخرجه البخاري (٢٤٤ / ١١) ومسلم [١٠٥٢] عن أبي سعيد .

بصورة صحيحة ، ثم (استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت) .

فإن هذا يعني أن مأخذ البقرة الأولى (لما ينبت الربيع) هو الذي قتلها .

ومأخذ البقرة الثانية (لما ينبت الربيع) هو الذي أفادها . ولكن (ما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم) .

وعلى هذا كانت الاجابة : (أن الخير لا يأتي إلا بالخير) ولكن مأخذ الناس للخير بصورة خاطئة هو الذي ينشيء الشر .

ومع المخاطبة بقدر العقل تأتي أساليب أخرى لها نفس القيمة والأثر ، منها أسلوب الإثارة العقلية الذي تنشط به طاقة التفكير عند الإنسان لفهم الاسلام .

ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول ﷺ :

قوله : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى !! » .
ــ قالوا : ومن يأبى يا رسول الله
ــ قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » .(٩٨)

وقوله : « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل أباه !! » .
ــ قالوا : كيف يسب الرجل أباه يا رسول الله
ــ قال : « يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه ويسب أمه »(٩٩) .

وقوله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما !! »
ــ قالوا : هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟

---

(٩٨) أخرجه البخاري (٣٤٩ / ١٣) عن أبي هريرة .

(٩٩) أخرجه البخاري (٤٠٣ / ١٠) ومسلم رقم [٩٠] عن ابن عمرو .

— قال : « رده عن مظلمته ، فإن ذلك نصره »[100]

وهذه الأمثلة توضح عنصر التعجب من عناصر الإثارة العقلية .. يأتي معه عنصر التساؤل الذي يعطى السامع فرصة المبادرة في التفكير .

ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول ﷺ :

قوله : « مثل المؤمن كشجرة من شجر البوادي لا يسقط ورقها »[101]

قال عبد الله بن عمر : فوقع الناس في شجر البوادي . فهممت أن أقول هي النخلة ولكن استحييت لأني كنت أصغر القوم سنا ، فقال رسول الله ﷺ : هي النخلة . فقال عمر بن الخطاب : لئن قلتها لكان أحب إلى من كذا وكذا .

وقوله : « سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » ثم ترك المجلس فقال الناس لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، وقالوا لعلهم لم يسجدوا لصنم وأخذوا يقولون حتى جاء رسول الله ﷺ وقال : « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون »[102] .

ومن الحكمة في أسلوب التبليغ بالكلمة .. أساس الارتكاز على الطبيعة الانسانية في المخاطبة ، وهذا الأساس هو الذي يحقق من هذه الطبيعة أقصى إمكانية إقتناع بالحق .

فنجد رسول الله ﷺ : يرتكز على الاحساس الطبيعي بالغربة عند الانسان ، ليؤكد غربة الاسلام فيقول : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » .

---

(١٠٠) أخرجه البخاري (٩٨ / ٥) عن أنس رضي الله عنه .

(١٠١) البخاري (٢٢٩ / ١) ومسلم رقم [٢٨١١] من حديث ابن عمر .

(١٠٢) أخرجه البخاري (٤٠٥ / ١١) ومسلم رقم [٢٢٠] عن ابن عباس .

قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟

قال : « الذين يصلحون عند فساد الناس » .(١٠٣)

وكذلك الاحساس الطبيعي بالعودة بعد الغربة فيؤكد رسول الله ﷺ معنى الرجوع إلى الله عز وجل ، فيقول في دعاء الرجوع من السفر .. « آيبون .. تائبون .. عابدون . لربنا حامدون »(١٠٤) .

كما يركز رسول الله ﷺ على إحساس الافلاس وهو احساس بالحسرة . فينقل الرسول الاحساس بالافلاس في المال إلى الافلاس في الحسنات يوم القيامة فيقول : أتدرون من المفلس ؟ فيقولون : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار .. فيقول : المفلس من جاء بحسنات مثل الجبال وكان قد ضرب هذا وشتم هذا وسفك دم هذا فأخذ من حسناته فأعطيت لهم حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فطرح في النار .(١٠٥)

كما يركز رسول الله ﷺ على الاحساس الطبيعي برحمة الأمومة ليؤكد لنا رحمة الله بعباده .

فبعد أن وجد امرأة تحتضن ابنها وترضعه وكانت قد عثرت عليه بعد أن فقدته ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تظنون أن تلقى هذه بابنها في النار ؟ » قالوا : لا يا رسول الله . قال : « إن الله أرحم بعباده من هذه الأم بولدها »(١٠٦) .

---

(١٠٣) رواه مسلم رقم [١٤٥] عن أبي هريرة ولفظه : ﴿ **الذين يصلحون** ... ﴾ عند الطبراني في الكبير (١٦٤ / ٦) من حديث سهل بن سعد .

(١٠٤) البخاري (١٩٢ / ٦) عن ابن عمر ، ومسلم رقم [١٣٤٤] عن ابن عمر أيضا .

(١٠٥) أخرجه مسلم رقم [٢٥٨١] عن أبي هريرة .

(١٠٦) رواه البخاري (٤٢٦ / ١٠) ومسلم رقم [٢٧٥٤] عن عمر بن الخطاب .

● ومن الحكمة في أسلوب التبليغ :

التناسب الدقيق بين صيغة التبليغ وموضوعه :

فإذا كان الموضوع موضوعا غيبيا مثلا . فإنه يلزم في أسلوب الحديث عنصر التشبيه والمقارنة بين الغيب والشهادة .

مثال قول رسول الله ﷺ في البعث « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » وقوله في النشور : « ثم ينزل ماء من السماء يشبه المنى فينبت الانسان من الأرض كما ينبت النبات »(١٠٧) .

وقوله في المرور فوق الصراط : « كالبرق وكأجاويد الخيل »(١٠٨) .. في الصحيح رواه البخاري ومسلم .

وقوله ﷺ في وصف النار : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ولو لم تطفأ بالماء سبعا لما انتفعتم بها »(١٠٩) ، وقوله : « أشد ما تجدون من الحر فهو من فيح جهنم »(١١٠) .

كما يلزم الربط بين الغيب والشهادة من خلال الواقع والأحداث والأشخاص ..

فمن خلال الواقع يربط رسول الله ﷺ بين الجنة والقتال فيقول : « الجنة تحت

---

(١٠٧) أخرجه البخاري في التفسير سورة النبأ (٦٨٩ — ٦٩٠ / ٨) : ثم ينزل الله من السماء ماء فيتبتون كما ينتبت البقل ... الحديث وفي مسلم نحوه رقم [٢٩٤٠] .

(١٠٨) أخرجه مسلم رقم [١١٠ /٦] عن عائشة .
وانظر المسند (١١٠ / ٦) عن عائشة .

(١٠٩) البخاري (٣٣٠ / ٦) ومسلم [٢٨٤٣] عن أبي هريرة .

(١١٠) أخرجه البخاري (٣٣٠ / ٦) ومسلم رقم [٦١٧] عن أبي هريرة .

ظلال السيوف »[111] . ومن خلال الأشخاص يقول الرسول ﷺ : « يا بلال لقد سمعت وقع أقدامك في الجنة فماذا تفعل »[112] فيقول : يا رسول الله ﷺ ما توضأت وضوءا إلا صليت ركعتين . ويشير الرسول ﷺ إلى رجل ويقول : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذ الرجل »[113] .

● **الثالث ـ الصراع بالكلمة :**

وأسلوب الدعوة الصحيح لا يعني أن يؤمن كل الناس ، ولكنه يعني أن ترجع أسباب كفر من يكفر منهم إلى نفسه فلا يكون أسلوب الدعوة ذاته سببا من أسباب الكفر .

ولذلك فإن أسلوب الدعوة الصحيح لا يلغى افتراض عداء الناس لهذه الدعوة .

وتحديد أسس الصراع بالكلمة بين الجاهلية والاسلام هو المواجهة الحقيقة لهذا الافتراض .

ومن الطبيعي في تحديد حقيقة أي صراع أن نعرف أطرافه وأهدافه ، وتعريف الكلمة الإسلامية في مواجهة الكلمة الجاهلية هي بداية هذا التحديد .

فالكلمة الاسلامية هي نور الله ، والكلمة الجاهلية هي حركة لسان . ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . [سورة التوبة الآية : ٣٢]

والكلمة الإسلامية أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والكلمة الجاهلية اجتثت

(١١١) البخاري (٣٣ / ٦) ومسلم رقم [١٧٤٢] عن ابن أبي أوفى .

(١١٢) أخرجه الترمذي رقم [٣٦٨٩] وقال « هذا حديث صحيح غريب » وهو كما قال .

(١١٣) رواه مسلم رقم [١٤] عن أبي هريرة .

من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم الآيات ٢٤ — ٢٦]

والكلمة الاسلامية هي العليا والجاهلية هي السفلى .. ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [سورة التوبة الآية ٤٠] .

وواضح من النص أن علو الكلمة الإسلامية علو ذاتي وليس هذا العلو نتيجة من نتائج هذا الصراع(*) .

وبعد تحديد أطراف الصراع يتأكد أن الكلمة الجاهلية ليست شيئا فهي حركة خبيثة بالأفواه لا حقيقة لها ولا أصل ولا شأن لها ولا قوة ورغم ذلك يبلغ تأثيرها في الواقع البشري حد السيطرة الكاملة تقريبا وتحليل هذه الظاهرة هي أساس اتخاذ الموقف الاسلامي الصحيح في هذا الصراع .

والكلمة الجاهلية وحي شيطاني بدليل قول الله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام الآية : ١١٢] .

(*) ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى وكلمة الله هي العليا** ﴾ فاقترنت كلمة الكفار بالجعل أي أنها نتيجة لشيء ، وكلمة الله أكد تعليتها بالضمير المنفصل وبالجمله الإسمية الداله على الثبوت عكس الجمله الفعليه التي تدل على التغير .

ونرى زخرف القول في الكلمة الجاهلية ممثلا في :

الشكل المنطقي(*) .. فعندما أنزل الله تحريم الميتة قالت اليهود : وكيف لا نأكل مما ذبح الله ونأكل مما ذبحنا نحن(١١٤) .

فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ .

[سورة الأنعام الآية ١٢١]

كما نرى زخرف القول في الصورة المثالية التي تحاول الجاهلية أن تصيغ فيها كلمتها وفكرها وقد وضحت هذه الصورة في طواف المشركين عرايا حول البيت الحرام معللين ذلك بضرورة عدم الطوف بالثياب التي يخطئون فيها .

ونرى زخرف القول في الصفة المبدئية التي تعطيها الجاهلية لنفسها ليظهر الجاهليون كأصحاب مبدأ واثقين بما معهم ثابتين على ما هم عليه .. وهذا أبو جهل يقول قبل غزوة بدر : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداه . فكان المستفتح(١١٥) .

(*) والشكل المنطقى من أخطر الأساليب الشيطانية في إضلال الإنسان ، بدليل قول رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول له : من خلق السموات ؟ فيقول : الله . ومن خلق الأرض ؟ فيقول : الله . فيقول له : ومن خلق الله » ؟ رواه مسلم ويراجع كتاب نقض المنطق للإمام ابن تيمية .

(١١٤) أخرجه البخاري (٦ / ٣٣٦) ومسلم رقم [١٣٤] عن أبي هريرة .

(١١٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة — وهو ابن صُعير — وهو صحابي صغير يقال إن له صحبة والصحيح أن حديثه مرسل صحابي وسنده جيد .

وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر فأخذوا باستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [سورة الأنفال الآية : ١٩] يقول لقد نصرتم وقلتم وهو محمد ﷺ .

ونرى زخرف القول في المظهر الانساني الذي تظهر به الجاهلية .. وهذا عقبة بن ربيعة يقول في الاسلام : « فرق الناس ، وخرب الديار ، وجعل الولد يقتل والده » .

وزخرف القول هو الخط الأول من خطوط الصراع بالكلمة من الجانب الجاهلي ، يليه خط الفصل بين الإنسان والاسلام ، وذلك من خلال منع الكلمة الإسلامية من الظهور : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة فصلت الآية : ٢٦] . ومقاومة أثر الكلمة إذا ظهرت ومن ذلك اصرار المنافقين على اسم يثرب بعد أن دخل الاسلام في المدينة فسميت طيبة ، باعتبار أن هذا الاسم أثر من آثار الاسلام في الواقع : ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ١٣] كما تمارس الجاهلية الفصل بين الانسان والاسلام من خلال المساومة عليه والمداهنة فيه : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [سورة القلم الآية : ٩] حتى يضيع الحق بتلك المداهنة .

ومن أخطر الأساليب الجاهلية للفصل بين الانسان والاسلام عندما يفرض كأمر واقع هو اتخاذ موقف المتبني له والداعي إليه ، والرافع لشعار الايمان به وقد كانت هذه الفكرة هي علة المحاولة الساذجة التي حاولها ابرهة الحبشي ، عندما يئس من هدم الكعبة فبنى كعبة أخرى في بلاده ليصرف الناس عن بيت الله الحرام ،

ومثلما بنى المنافقون مسجدا ضرارا ليصرفوا الناس عن مسجد رسول الله ﷺ .

وموقف بناء الكعبة المزيفة والمسجد الضرار هو موقف الجاهلية دائما عندما تفشل في مواجهة واقع إسلامي .

وتعتبر الجاهلية أن الفصل بين الانسان والايمان ابتداء والفصل بين المؤمنين وحقيقة الايمان هو الوسيلة الأساسية التي تفر بها من مواجهة مؤكدة الفشل مع الوجود الايماني الصحيح ، وهذه قريش تعذب ثم تغلق أبواب التعذيب بعد أن وجدت في التعذيب اصرارا على الايمان وتمسكا به .

وتفتح أبواب الدنيا .. بآمال يصعب الفرار منها .

« إن كنت تريد مالا أعطيناك ..[117]

إن كنت تريد سيادة سودناك ..

وعندنا أجمل بنات العرب » ..

فالدراهم المعدودة أثقل وزنا من الحجر الذي كان على صدر بلال .

وإشارة الاغراء أسرع انزافا من الحربة التي ضربت بها سمية في فرجها . والايمان هو الحقيقة ، والدليل عليها كل كلمة حق خالصة .

هذه هي أبرز الخطوط التي تتحرك فيها الجاهلية في مجال الصراع بالكلمة مع الاسلام .

واستمرارا في تحديد طبيعة الصراع بالكلمة بين الجاهلية والاسلام تتحدد

---

(١١٧) أخرجه ابن إسحاق في المغازى كما في سيرة ابن هشام (١٨٥ / ١) وحسن الألباني إسنادها عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً .

كذلك الأسس التي يجب أن يتحرك بها المسلمون في صراع الكلمة مع الجاهلية .

وأبرز هذه الأسس :

(أ) رد الفكر الجاهلي إلى الواقع الجاهلي :

وقيمة هذا الأساس هي إبراز التناقض بينهما لرد أي إدعاء جاهلي وتكذيبه ولهذا رد القرآن إدعاء اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله إلى واقعهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة المائدة الآية : ١٨] .

(ب) كمال المواجهة :

وأساس الكمال في المواجهة يعني أن يكون هناك رد لكل فكرة تثيرها الجاهلية ضد الاسلام ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان الآية : ٣٣] .

كما يعني أن تكون الكلمة الأخيرة في أي جدل هي الكلمة الاسلامية وهذه قاعدة نجدها في كل حوار جاء في كتاب الله بين الجانب الاسلامي والجاهلي .

وحتى عندما يضطر المسلم للسكوت في جدل مع الجاهلية فإنه يقول ما يثبت به قدرته على المواجهة ويثبت أن سكوته ليس عجزا ، إنما تنزها عن الاستمرار في مجادلة مع الجاهلية ليست بالحسنى وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [سورة الفرقان الآية : ٦٣] .

(ج) استرداد المفاهيم المغتصبة :

وهذا الأساس يعني أن نسترد أي مفهوم اغتصبته الجاهلية وأضافته إلى واقعها الفكري لتؤثر من خلاله على العقل البشري ، وقد عرض القرآن حوارا بين

(*) أخرجه البخاري (١٠٣ / ٤) ومسلم رقم [١١٥١] عن أبي هريرة .

مؤمن آل فرعون وبين فرعون استرد فيه المؤمن مفهوم « الرشاد » الذي اغتصبه فرعون فوصف به نفسه ، وكان الحوار هو قول الله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [سورة غافر الآية : ٢٩] ويستمر الحوار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[سورة غافر الآية : ٣٨] » .

فيسترد المؤمن بذلك مفهوم الرشاد . وبهذا الأسلوب تنشأ ضرورة استرداد أي مفهوم مغتصب بالتحديد الاسلامي الكامل لهذه المفاهيم وإثبات أنها لا تحتوي مضمونا ولا تمثل معنى إلا بالتصور الاسلامي .

ومثال ذلك مفهوم « العدل الاجتماعي » الذي اغتصبته الشيوعية ومفهوم « المحبة » الذي اغتصبته الصليبية .

(د) الجدل بالتي هي أحسن .. وهو أهم الأسس :

والجدل بالتي هي أحسن هو قرينة الحكمة في النص القرآني الذي أمر الله فيه بالدعوة إلى سبيله بها : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل الآية : ١٢٥] وتحديد المباديء التي نسير عليها في الجدل مع الجاهلية ، من أهم أسس الصراع بالكلمة .

وهذه المباديء تتحدد بصفة أساسية في عدة أمور :

١ ــ مبدأ افتراض المخالفة .. وهو المدخل الذي يضع الطرف المجادل في أول الطريق الصحيح للتفكير ، بعد أن يطمئن إلى أن الطرف المسلم يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق . ودليل هذا المبدأ هو قول الله : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ الآية:٢٤].

والمساواة بين الطرفين فى إحتمال الهدى أو الضلال . لا يعنى المساواة بين تصور الطرفين لأن النص أثبت التقابل التام في التصور . ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ الآية : ٢٤] . كما لا يعني انتقاص اليقين فيما عليه الجانب المسلم ، ولكنه افتراض جدلي يثبت التجرد الاسلامي للحق .

وقوله : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ الآية : ٢٤] .

هذا من باب اللف والنشر : أي أن واحد من الفريقين مبطل والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب)[1] .

(قال قتاده : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين والله ما نحن وإياكم على أمر واحد أن أحد الفريقين لمهتد)[2] .

٢ ـــ نفى الفضل الشخصي في مجال الجدل ..

وهذا ما نتعلمه من رسول الله ﷺ فمن حيث الوصول إلى الحق يكون الدليل قول الله : ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ .
[سورة سبأ الآية : ٥٠]

ومن حيث الاعتقاد فيه يكون الدليل قول الله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[سورة الزخرف الآية : ٨١] .

فليس لي موقف شخصى تجاه العقيده إلا التسليم بما يأمرني به ربي ومن حيث التكليف به يكون الدليل .. ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ

١ ـــ تفسير ابن كثير . ٢ ـــ تفسير الطبرى .

عِندِهِۦ ﴾ [سورة هود الآية : ٨٨] . وهذا ما يثبت كذلك التجرد الاسلامي للحق .

٣ — مبدأ طلب الدليل .. وهو كذلك مبدأ جدلى يجب الالتزام به حتى مع الاعتقاد ببطلان الأمر الذي نطلب عليه الدليل .

ودليل ذلك قول الله :﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾
[سورة البقرة الآية : ١١١]

٤ — مبدأ السماع الكامل .. وهو المبدأ الذي يحقق صفة التدبر لأن التدبر من الدبر أي الآخر . وهذا يعني أن التدبر لا يتحقق إلا بسماع الكلام إلى آخره .

كما أن سماع الطرف المقابل إلى النهاية يوحي بثقة الطرف المستمع فيما عنده وهذا رسولنا عليه الصلاة والسلام يتحدث إليه عتبة بن ربيعة فلا يقاطعه الرسول حتى ينتهي ، ثم يقول له : « انتهيت » ؟ . قال : نعم . قال : « فاسمع مني »[118] وهكذا .

٥ — مبدأ الدفاع عن الرأي .. وهو معنى الجدل ، والالتزام بهذا المبدأ سيحدد مقياسا علميا لأطراف الجدل ، لأنه لن يدخل الجدل إلا من هو على يقين بما عليه من رأي ، ومجرد اتهام الرأي المخالف لا يتطلب العلم الذي يتطلبه الدفاع عن الرأي الصحيح . ولذلك فإن الالتزام بمبدأ الدفاع عن الرأي سيترتب عليه ارتفاع المستوى العلمى اللازم لتكوين الرأي مع انحسار موجة الجدل في حدود الضرورة .

---

(١١٨) وهذا الأثر أخرجه ابن إسحاق في المغازى كما في سيره بن هشام (١٨٥ / ١) بسند مرسل حسن قال الألباني ووصله عبد بن حمير وأبو يعلى والبغوي من طريق آخر وسنده حسن .

ثانيا ـــ استخدام القوة :

ومع الأسلوب الصحيح في التبليغ والمواجهة السليمة في الصراع بالكلمة بين الجاهلية والاسلام تتأكد ضرورة القوة في مهمة التبليغ .

فللقوة أثر عميق في فهم الحق ، ولهذا قال قوم شعيب له ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[سورة هود الآية :٩١]

وواضح من الآية أن رؤية قوم شعيب له ضعيفا هي علة عدم فقههم للدعوة .

ولذلك يأمر الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام أن يشرد بالكفار من خلفهم لكي يتذكروا ويفهموا ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .
[سورة الأنفال الآية : ٥٧]

واعتبار القوة وسيلة هداية يحتم أن تصطبغ الدعوة بها .

ولهذا يجعل الرسول ﷺ معنى القوة محتويا لمضمون الدعوة ، فيقول : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري »[١١٩] .

ومن أجل اصطباغ الدعوة بصبغة القوة تجد آيات قرآنية وأحاديث نبوية ليس القتال موضوعها ولكن يشعر من يقرؤها بامتزاج القوة في حقيقة هذا الدين . مثال قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النجم الآية : ٩] في تحديد المسافة التي كانت بين رسول الله ﷺ وعرش الرحمن ليلة الإسراء حيث

---

(١١٩) أخرجه أحمد (٥٠ / ٢) عن ابن عمر وسنده حسن كما قال الحافظ في بلوغ المرام وفي الفتح (٢٢ / ١٠) وصححه الشيخ شاكر في شرح المسند رقم [٥١١٤] وانظر حجاب المرأة للألباني (ص ١٠٤) .

تحددت بقاب القوس ، ومثال قول رسول الله ﷺ في تحديد وقت صلاة الضحى بأنها وقت ارتفاع الشمس في السماء « قدر رمحين » .

وإعتبار القوة وسيلة من وسائل الهداية ليس فيه تجاوز على وسيلة الاقناع بالكلمة ولكن ما يترتب على ذلك هو تحديد الأسلوب القتالي بهذا الاعتبار حتى لا تنفصل الحركة القتالية عن هدف الهداية ، وارتباط حركة القتال بهدف الهداية يتحقق بأحكام محددة يجب الالتزام بها وأهمها .

- التبليغ قبل القتال : « ما قاتل رسول الله قوما إلا دعاهم »[١٢٠] ، وهو التبليغ العام ، أما التبليغ الذي يسبق القتال مباشرة فإنه يكون بعد التبليغ العام وهو مرتبط بالامكانية العملية لأصحاب الدعوة بمعنى أنه يجوز القتال دون أن يحدث هذا التبليغ ، والدليل في كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري[١٢١] (باب جواز الاغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الاسلام من غير تقدم الاعلام بالاغارة) :

« حدثنا سليم بن أخطر بن عدي قال : كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال قال : فكتب إلى إنما كان ذلك في أول الاسلام .. فقد أغار الرسول

---

(١٢٠) أخرجه أحمد في مسنده رقم [٢٠٥٣] عن ابن عباس ما قاتل رسول الله ﷺ قوما حتى يدعوهم وسنده صحيح وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٩٥ / ١١) و (٣٢ / ١١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٤ / ٥) : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد ورجال أحدها الصحيح » .

(١٢١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد رقم [١٧٣٠] باب : جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الاسلام من طريق سليم بن أخضر عن ابن عون كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ..... الحديث .

وأخرجه البخاري في العتق (١٧٠ / ٥) من طريق ابن المبارك عن ابن عون .

ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تستقى على الماء فقتل مقاتليهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ جويرية ابنة الحارث » .

- تبليغ الأسرى بدليل قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة الأنفال الآية : ٧٠] .

- إنهاء القتال أو الأسر بمجرد تحقق هدف الهداية بدليل قول الله : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورةالتوبة الآية : ٥] . وقوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة الآية : ١١] .

- اجارة المشرك حتى يسمع كلام الله بدليل قول الله : ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة الآية : ٦] .

- وبصفة أساسية فإن إرتباط الحركة القتالية بهدف الهداية يتحقق بتقديم هذا الهدف على غرض القتال سواء كرغبة نفسية لقول رسول الله ﷺ « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فأثبتوا »[١٢٢] . أو كطمع في غنيمة لقول الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [سورة النساء الآية : ٩٤] وقول الرسول ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها »[١٢٣] . ويعلمنا النبي ﷺ هذا المبدأ عندما تطلب

(١٢٢) أخرجه البخاري (١٥٦ / ٦) ومسلم رقم [١٧٤١] عن أبي هريرة .

(١٢٣) أخرجه البخاري (٧٠ / ٧) ومسلم رقم [٢٤٠٦] عن سهل بن سعد .

الصحابة منهن يدعو بهلاك إحدى القبائل فيقولون يا رسول الله : إدع الله أن يهلك دوس ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « اللهم إهد دوسا »[١٢٤] .

ثالثا — قيام السلطة :

وإعتبار القوة وسيلة هداية يرجع إلى كونها أساسا لقيام السلطة الإسلامية التي تعتبر بدورها أساسا في تحقيق الهداية .

ودليل العلاقة بين القوة والسلطة والهداية هو قول الله عز وجل ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [سورة النصر : الآيات : ١ — ٣] .

ولذلك يجب أن يكون خط القتال مشدودا إلى موقع السلطة لتحقيق العلاقة التي أثبتها القرآن بين النصر والفتح بإعتبار أن النصر هو النتيجة العسكرية للقتال وأن الفتح هو النتيجة السياسية للنصر ، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينتظر بعد القتال أياما في موقع القتال يقيم الأحكام لتصبح دار الحرب داراً للإسلام ، ويتحقق الفتح بعد النصر ، مثلما انتظر الرسول في مكة بعد الفتح ، وإثبات القرآن للعلاقة بين القتال والسلطة هو الذي يرد أي تصور لقيام السلطة بغير القتال . ذلك لأن السلطة الإسلامية هي التي يتحقق بها الإظهار لدين الحق ولو كره الكافرون : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ [سورة الصف الآية : ٩ ، والتوبة : ٣٣] ولن يكون ذلك إلا بالقوة كما أن السلطة الإسلامية هي التي يأمن تحتها المسلم على ماله ودينه وعرضه ولن يكون ذلك أيضا إلا بالقوة .

كما أن القتال كأسلوب للوصول إلى السلطة يمحص أصحاب الدعوة تمحيصا يحدد العناصر القادرة على تحمل مسئولية السلطة وتكاليفها ، ذلك لأن المسلم

(١٢٤) أخرجه البخاري (١٠١ / ٨) ومسلم رقم [٢٥٢٤] عن أبي هريرة .

الذي مر بتجربة الاستضعاف وبيع النفس لله بالقتال في سبيله سبحانه .. هو المسلم الذي يغلب الظن بقدرته على تحمل تلك المسئولية وهذه التكاليف دون عجز أو فتنة .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يختار الولاة على البلاد التي تفتح على المسلمين من الذين خاضوا تجربة الاستضعاف فأنكرت قلوبهم فتنة الدنيا وأصبحت لا تضرهم ما دامت السموات والأرض .

كما قال رسول الله ﷺ « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا أيما قلب أشربها نكتت في قلبه نكتة سوداء وأيما قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء فأصبحت القلوب على صنفين قلب أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض » .[١٢٥] .

* * *

المنطلق الثاني : وهو الإحكام بين مراحل العمل .

ومعناه تحديد الأسس التي يتم بها الانتقال من مرحلة عملية إلى مرحلة عملية أخرى وأن تكون كل مقتضيات الحركة مرتبطة بالمرحلة التي تمر بها من خلال أسس ثابتة للتحرك وأهم هذه الأسس :

١ ــ نظام التحرك :

فمن حيث نظام الارتباط يكون في مرحلة النشأة إرتباط فردي وفي مرحلة الامتداد يكون ارتباطا عاما .

ومن حيث نظام التحرك يكون في مرحلة النشأة تحرك محدود مثلما كان رسول

---

(١٢٥) رواه مسلم رقم [١٤٤] من حديث حذيفة بن اليمان .

الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكان كل من يريد اعتناق الاسلام يذهب إليه في تلك الدار بحيث لا يعلم أحد مكانه(*) .

أما التحرك في مرحلة الامتداد فهو تحرك عام مثل تحرك الرسول ﷺ في المدينة حيث كان يغشي الناس في مجالسهم . حتى أن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين أراد أن يحدد تحرك رسول الله ﷺ فقال له : لا تغشنا في مجالسنا ولكن إذا أتى أحد إليك فتحدث معه فقد آذانا نتن حمارك ، فكان سعد بن عبادة جالسا مع القوم فقال : لا يا رسول الله ، بل أغشنا في مجالسنا(١٢٦) .

وبذلك يريد عبد الله بن أبي أن يرجع بأسلوب تحرك الدعوة إلى ما كانت عليه في مكة وهذا ما رفضه أنصار المدينة . ولم يذكر رأس المنافقين سببا لطلبة هذا سوى كلمة : لقد آذانا نتن حمارك .

وهذه الكلمة هي موقف الجاهلية الثابت عندما يفرض انتشار إسلامي ولا تستطيع رفضه مباشرة لأي سبب من الأسباب فتختلق المبررات التي تمنع بها هذا الانتشار حتى لم يجد رأس المنفقين ما يقوله سوى هذه الكلمة التي يفوح منها الشعور الجاهلي العفن تجاه أي امتداد إسلامي .

وقد تستغل الجاهلية أي خطأ قد يقع فيه أصحاب الدعوة وتراه سببا لمنع الإنتشار فتضخمه وتنشره ، وتهول به مثلما حدث عندما تلاحي رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار . فاستغل عبد الله بن أبي الموقف وأخذ يحرض على المهاجرين وفي ذلك جاء قول الله عز وجل : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ

(*) أصحاب الأخدود للكاتب .

(١٢٦) أخرجه البخاري (١٢٢ / ١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

[سورة المنافقون الآية : ٧ ، ٨]

وبأسلوب إعلامي خبيث قال عبد الله بن أبي « مثلكم ومثل هؤلاء ـــ يعني الأنصار والمهاجرون ـــ كمثل القائل « سمن كلبك يأكلك » .[١٢٧]

ولعل إدراك الموقف الجاهلي من الامتداد الاسلامي المفروض عليها يعمق عند كل مسلم مسئولية المحافظة على هذا الامتداد عند التحرك في مجال الدعوة .

٢ ـــ اعتبار المآل :

واعتبار المآل هو توقع النتيجة التي ستحدث بعد الانتقال من مرحلة إلى أخرى لتفادي أي أثر غير مقبول قد يحدث بهذا الانتقال .

واعتبار المآل أصل من أصول الفقه وملخصه أنه إذا كان هناك عمل جائز في ذاته ولكن مآله غير مقبول صار هذا العمل غير جائز لقول الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام الآية : ١٠٨] حيث وضح من النص أن سب الذين يدعون من دون الله صار أمرا غير جائز باعتبار المآل وهو سب الله سبحانه وتعالى والأسس التطبيقية لذلك الأصل في مجال الدعوة هي :

- إذا كان العمل الذي له مآل غير مقبول عملا ضروريا في ذاته وليس له بديل فإننا لا نتوقف عن هذا العمل ونواجه ذلك المآل . مثال إتخاذ الكافرين لنداء المسلمين إلى الصلاة هزوا ولعبا بدليل قول الله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ [سورة المائدة الآية : ٥٨] إذ أنه ليس معنى أن يتخذ

(١٢٧) أخرجه ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً راجع الفتح للحافظ (٦٥٠ / ٨) وابن كثير في التفسير (١٨ / ٧) .

الكافرون النداء إلى الصلاة هزوا ولعبا أن نتوقف عن النداء ، لأنه عمل ضروري وليس له بديل .

- إذا كان العمل له بديل توقفنا عنه وفعلنا ذلك البديل لتفادي المآل المترتب على هذا العمل مثال قول الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

[سورة البقرة الآية : ١٠٤]

إذ ورد في تفسير الآية أن اليهود كانت تقول « راعنا » أي أرعننا وجعلوها من الرعونة ، والكلمة من المراعاة ، فكانوا بذلك يسبون النبي ﷺ ، فجاء أمر الله بتغيير كلمة راعنا بكلمة بديلة وهي ﴿ **انظرنا** ﴾ .

- وفي التفريق بين المآل المقبول والغير مقبول يجب أن نفرق بين ما قد يصيب الدعوة من ضرر وما يصيب الأشخاص من أذى ، فما يصيب الدعوة من ضرر هو المآل الغير مقبول ، ولكن ما يصيب الأشخاص من أذى فهو مآل لابد أن يكون ، وبذلك يلزم التوقف عن أي عمل يترتب عليه ضرر للدعوة كما يلزم عدم التوقف عن أي عمل لمجرد توقع الأذى للأشخاص بل نعمله مع بذل الطاقة لدفع هذا الأذى والصبر عليه عندما يقع .

والدليل على التفريق بين الضرر والأذى هو قول الله عز وجل :﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [سورة آل عمران الآية :١١١] حيث أن معنى النص هو أنه لن يضروكم في دعوتكم ودينكم ، ولكن قد يصيبوكم في أشخاصكم ودنياكم .

٣ ــ الاتزان الحركي :

ومفهوم الاتزان الحركي .. مقصود به أن يكون الانتقال المرحلي مجرد من الإندفاع والإنفعال والحماس . وبأن يكون الانتقال بعامل زمني منضبط . فلا تنفلت الحركة بالاندفاع النفسي من قيد الامكانيات العملية ، والانضباط الزمني

للتحرك هو الحد الفاصل بين السرعة المطلوبة بالصفة العملية والتعجل المحذور بالصفة النفسية .

والقرآن يعلمنا من خلال قصة سليمان مبدأ الاهتمام بالوقت وذلك في موقف الاتيان بالعرش عندما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [سورة النمل الآيات : ٣٨ — ٤٠] .

وواضح من الآيات أن الذي أتى بالعرش هو الذي عرض امكانية الاتيان به أسرع من الآخر .

والاهتمام بالوقت هو الذي يحمي الحركة من صفة التأخر المنهى عنها ، بقول رسول الله ﷺ : « ولا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله »[١٢٨] .

ولقد تبين لنا من خلال منهج التربية كيف أن الوصول إلى مرحلة الربانية هو الذي يحقق الاتزان النفسي عند الداعية ويحميه من الاندفاع ويعينه على تحمل أي ضغط أو معاناة ..

كما تبين لنا أن الحماس أمر مرفوض في مجال الدعوة . وأنه وإن كان يمثل في ظاهره طاقة فإنها في حقيقتها طاقة وهمية وليست باقية .

وهذا الاتزان النفسي هو الذي يحمي الحركة من صفة التعجل المنهي عنها بقول رسول الله ﷺ : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة

(١٢٨) رواه مسلم [٤٣٨] عن أبي سعيد .

إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »(١٢٩) .

ولذلك يقول ابن القيم في الحكمة : « ولها ثلاثة أركان : العلم والحلم والاناة ، وآفاتها وأضدادها : الجهل والطيش والعجلة ، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول والله أعلم »(*) .

٤ ــ حماية الولاء :

ومن أسس الإنتقال المرحلي للدعوة أساس حماية الولاء . لأن الولاء سمع وطاعة ، ودخول الجماعة المسلمة في مرحلة يعجز الفرد عن تحمل مشقاتها سيجعله يعيد التفكير في ولائه فيضطرب وضع الولاء في الجماعة .

ولذلك طلب رسول الله ﷺ بيعة من الأنصار عندما أراد أن يخرج إلى قريش خارج المدينة ، وذلك حتى يرتفع مستوى الولاء إلى طبيعة المرحلة القادمة . لأن البيعة التي تمت بين الرسول ﷺ والأنصار قبل بدر كانت تنص على حمايته في المدينة .

واستجابت الأنصار ، وقال سعد بن معاذ كلمته المشهورة « إنا لن نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة الآية : ٢٤] ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون »(١٣٠) .

كما طلب الرسول ﷺ بيعة من المسلمين لما أراد أن يحارب قريشا بعدما جاءه خبر مقتل عثمان وكانت بيعة الرضوان .

---

(١٢٩) البخاري (١٦٤ / ٧) عن خباب سبق في التعليق رقم [٨٤] .

(*) مدارج السالكين ص ٥٠٠ .

(١٣٠) أخرجه البخاري (٢٧٣ / ٨) عن ابن مسعود .

والواقع أن حماية الولاء مسألة نفسية دقيقة . وخصوصا عندما يكون تحقيق هذا الولاء في واقع فيه الشح مطاع والهوى متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ويكون المطلوب تحقيقة هو مقتضيات الولاء وأهمها العطاء والالتزام والتجرد .

وكما يراعي مستوى الجماعة قبل الدخول في مرحلة جديدة يراعى مستوى الفرد في تكليفه بمهمة معينة لأن التكليف بلاء ، والبلاء يجب أن يتناسب مع دين الفرد لقول رسول الله ﷺ :
« يبتلى المرء بقدر صلابته في الدين ، فإن علم في دينه صلابة زيد في ابتلائه . وإن علم في دينه رقة خفف من ابتلائه »(١٣١) .

وحماية الولاء مهمة يجب أن تتلازم مع نشأته من البداية .

ولذلك حدد لنا القرآن الكريم الأسلوب المرحلي الذي يتم به التعامل مع النفس البشرية لتحقيق الولاء وتبدأ مراحل نشأة الولاء بمثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة النور الآية : ٦٢] وهي مرحلة تتأكد فيها سلطة النبي ﷺ على المسلمين ممثلة في قوله تعالى : ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [سورة النور الآية : ٦٢] .

لتنتهي مراحل نشأة الولاء بمرحلة الولاء الكامل محددة بمثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [سورة : الأحزاب الآية : ٣٦] .

---

(١٣١) أخرجه الترمذي رقم [٢٣٩٨] وغيره وقال حسن صحيح .

٥ ــ الارتباط بالغاية :

ووضوح الغاية من البداية فيه تحقيق للبصيرة في الدعوة ولذلك كانت صحابة رسول الله ﷺ يدركون من البداية ما معنى دخولهم في الاسلام .. وما هي المراحل الحتمية التي سيخوضونها بإعتناقهم لهذا الدين .

وهذا أحد الأنصار في بيعة العقبة يقول : « أتدرون على أي شيء بايعتم رسول الله ؟ ، لقد بايعتموه على الموت »(١٣٢) فتأكد من القول أن وضوح الغاية يحقق اليقين بقدوم المواجة . فيتحقق الاستعداد لها .

والاستعداد والرغبة في المواجهة يوازي في قيمته المواجهة ذاتها ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من مات ولم يَغْزُ ولم تحدثه نفسه بغزو مات ميتة جاهلية »(١٣٣) .

ووضوح الغاية يحقق كذلك الشعور بالشوط الذي قطعه الداعية في طريق التحقيق لتلك الغاية . وبالتالي فإن هذا الشعور يقوي فيه إرادة الاستمرار وعزم الوصول .

وهذه طبيعة إنسانية إرتكز عليها رسول الله ﷺ في واقع الدعوة .

وهذا موقف يثبت ذلك ... عندما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في سرية لترصد عير قريش كتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ولما فتح الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت في كتابي فأمض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم ولا تكره

---

(١٣٢) البخاري (١١٧ / ٦) عن ابن عمر . وعن سلمة بن الأكوع في الجهاد باب البيعة في الحرب .

(١٣٣) رواه مسلم رقم [١٩١٠] عن أبي هريرة .

أحدا ممن معك » فقال : سمعا وطاعة ، وأخبر أصحابه كلهم بذلك وبأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم (١٣٤) .

وواضح من الحديث أن المهمة كانت خطيرة .. وأنها تتطلب عزما وإرادة . ولذلك لم يخبرهم الرسول بها حتى يقطعوا شوطا منها وهو مسيرة يومين ليكون قطع هذا الشوط عونا لهم في إرادة الاستمرار لتحقيق الهدف والغاية .

وهذه حقيقة فطرية تتحدد بها قيمة الاحساس بالشوط المقطوع في طريقنا لتحقيق هدفنا وغايتنا ، والارتباط بالغاية من الناحية العملية يعني أن تكون كل الوسائل والامكانيات مشدودة إلى تحقيق تلك الغاية فلا تشذ وسيلة عن إتجاهها ولا تتحول وسيلة في ذاتها إلى غاية .

وهذا هو الحق .. كما قال رسول الله ﷺ — وفي يده سيف : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام رجل وقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تقاتل به في سبيل الله حتى تقتل » . (١٣٥) .

وواضح من الحديث أن المرحلة التي يتمكن فيها المسلم من حمل السلاح ينشأ معها حق القتال به حتى يقتل في سبيل الله .

وهكذا ترتبط المراحل رغبة في القتال ، ثم استعداد وإعداد ، ثم قتال في سبيل إعلاء كلمة الله ، وشهادة يتحقق بها رضا الله ودخول الجنة .

---

(١٣٤) أخرج هذه القصة الإمام أحمد في المسند (١٧٨ / ١) من حديث سعد بن أبي وقاص .

(١٣٥) أخرجه مسلم رقم [٢٤٧٠] عن أنس وهذا الرجل هو أبو دجانه سماك بن خرشة .

خاتمة

على هذه الأسس يرسى القرآن قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن .

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله ، لا لشخص الداعي ولا لقومه . فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبة لله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله .

والدعوة بالحكمة ، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذي بينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والإندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه .

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتي هي أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الاقناع والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي

الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة . وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة . وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها : في سبيل الله ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر !

ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالإعتداء عمل مادي يدفع بمثله اعزازا لكرامة الحق ، ودفعا لغلبة الباطل ، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتقطيع ، فالاسلام دين العدل والاعتدال ودين السلم والمسالمة ، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [سورة النحل الآية : ١٢٦] . وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون في نفوس الناس . والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها ، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الله والعزة لله جميعا — ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقَبون فلا يعاقِبون ويعُتدى عليهم فلا يردون ؟

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حتى يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، في الحالات التي

قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرا وأكثر فائدة للدعوة ــ فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها ، فالقاعدة الأولى هي الأولى .

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [سورة النحل الآية : ١٢٦ ــ ١٢٧] فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره .

ويوصى القرآن الرسول ﷺ وهي وصية لكل داعية من بعده ، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون ، فإنما عليه واجبه يؤديه ، والهدى والضلال بيد الله وفق سننه في فطرة النفوس واستعدادتها وإتجاهاتها للهدى أو للضلال ، وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لايدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص فى دعوته لا يبتغى من ورائها شيئا لنفسه .

ولقد يقع به الاذى لامتحان صبره ويبطىء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ سورة النحل : ١٢٨ ومن كان الله معه فلا عليه مما يكيدون ومما يمكرون .

هذا هو دستور الدعوة الى الله كما رسمه الله ...

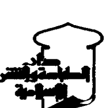
والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله .. .

ومن أصدق من الله ؟[*]

(*) في ظلال القرآن .. تفسير قول الله : ﴿ إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظه الحسنه ﴾ [سورة النحل : الآية ١٢٥] .

فهـــــرس الموضوعات

رقم الإيداع
١٩٩١ / ٥٧٧٥



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣